

عبد الحميد كشك

في
تفسير

الجزء الرابع عشر

المكتبة المصرية الحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر

مقدمة

قال صاحب البصائر : هذه السورة مكية إجماعاً . وعدد آياتها تسع وتسعون بلا خلاف . وكلماتها ستائة وأربع وخمسون . وحروفها ألفان وسبعمائة وستون .
وتسمى سورة الحجر : لاشتغالها على قصتهم ، وقوله : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ .

مقصود السورة إجمالاً : بيان حقيقة القرآن ، وحفظ الحق وبرهان النبوة وحفظ الحق كتابه العزيز من التغير والتبديل .
وتزيين السماوات بمواكب الكواكب وحفظهما برجوم النجوم من استراق الشياطين السمع ، وتقديره تعالى الماء والسحاب من خزائن بره ولطفه ، وعلق تعالى بأحوال المتقدمين في الطاعة والمتأخرين عنها .

وبيان الحكمة في تخليق آدم ، وأمر الملائكة المقربين بسجوده وتعيين إبليس وملامته على تأييه واستكباره وجحوده ، واستحقاقه اللعنة من الله بعضيانه وطغيانه ، وجراءته بالمناظرة لخالفه ومعبوده .
وبيان قسم الدركات (على أهل اللذات والضلالات) وذكر المستوجبى الجنة من المؤمنين ، وإخبار الله تعالى عباده بالرحمة والغفران ، وتهديدهم بالعذاب والعقاب .

والإشارة إلى ذكر أضياف الخليل عليه السلام ، والنهي عن القنوط من الرحمة ، وذكر آل لوط ، وسكرتهم في طريق العماية والضلالة ، وتسليية النبي ﷺ عن جفاء الكفار ، وبدىء أقوالهم .

والمن عليه ﷺ بنزول السبع المثاني والقرآن العظيم ، والشكوى عن الطاعنين في القرآن .

وذكر القسم بوقوع السؤال في القيامة ؛ وأمر الرسول ﷺ بإظهار الدعوة ، والمن عليه بإهلاك أعداء دينه ، ووصيته بالعبادة إلى يوم الحق واليقين في قوله : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ لو ما تأتينا ﴾ وفي غيرها . (لولا) ، لأن (لولا) يأتي على وجهين : أحدهما امتناع الشيء لوجود غيره ، وهو الأكثر . والثاني بمعنى هلا وهو التخصيص . ويختص بالفعل . و (لو ما) بمعناه . وخصت هذه السورة بلوما ، موافقة لقوله : (ربما) فإنها أيضاً مما خصت به هذه السورة .

قوله : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً ﴾ ، وفي البقرة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة

إني جاعل ﴿١﴾ ولا ثالث لهما ، لأن (جعل) إذا كان بمعنى (خلق) يُستعمل في الشيء يتجدد ويتكرر ؛ كقوله : ﴿ خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ (٢) ، لأنهما يتجددان زمانا بعد زمان . وكذلك الخليفة يدل لفظه على أن بعضهم يخلف بعضاً إلى يوم القيامة . وخصت هذه السورة بقوله : ﴿ إني خالق بشراً من صلصال ﴾ إذ ليس في لفظ البشر . ما يدل على التجدد والتكرار ، فجاء في كل واحدة من السورتين ما اقتضاه ما بعدهما من الألفاظ .

قوله : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ في هذه السورة ، وفي ص ؛ لأنه لما بالغ في السورتين في الأمر بالسجود وهو قوله : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ في السورتين بالغ في الأمثال فيهما فقال : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ ليقع الموافقة بين أولاهما وأخراها .

قوله هنا لإبليس : ﴿ اللعنة ﴾ وقال في ص ﴿ لعنتي ﴾ لأن الكلام في هذه السورة جرى على الجنس في أول القصة في قوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ ﴿ والجان خلقناه ﴾ ﴿ فسجد الملائكة كلهم ﴾ لذلك قال : (اللعنة) ، وفي ص تقدم ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ فختم بقوله ﴿ لعنتي ﴾ .

قوله ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ وزاد في هذه السورة ﴿ إخواناً ﴾ لأنها نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ ، وما سواها عام في المؤمنين .

قوله في قصة إبراهيم : ﴿ فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون ﴾ لأن هذه السورة متأخرة ، فاكتفى بما في هود ؛ لأن التقدير : فقالوا : سلاماً ، قال : سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيد ، فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قال : إنا منكم وجلون . فحذف للدلالة عليه .

قوله : ﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ وفي غيرها ﴿ وأمطرنا عليها ﴾ قال بعض المفسرين (عليهم) أى على أهلها ، وقال بعضهم : على من شذ من القرية منهم .

وقال تاج القراء : ليس في القولين ما يوجب تخصيص هذه السورة بقوله : (عليهم) بل هو يعود إلى أول القصة . وهو ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ ثم قال : ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ قال : وهذه لطيفة فاحفظها .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ بالجمع وبعدها ﴿ لآية للمؤمنين ﴾ على التوحيد . قال الإمام : الأولى إشارة إلى ما تقدم من قصة لوط (وضيف إبراهيم ، وتعرض قوم لوط لهم) طمعاً فيهم ، وقلب قرية على من فيها ، وإمطار الحجارة عليها ، وعلى من غاب منهم . فختم بقوله : ﴿ لآيات للمتوسمين ﴾ أى لمن يتدبر السمة ، وهى ما وسم الله به قوم لوط وغيرهم . قال : والثانية تعود إلى القرية : ﴿ وإنها لبسيل مقيم ﴾ وهى واحدة ، فوحد الآية .

وقيل : ما جاء في القرآن من الآيات ، فلجمع الدلائل . وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه ، فلما ذكر عقبة المؤمنين ، وهم مقرون بوحداية الله تعالى ، وحد الآية . وليس لها نظير إلا في العنكبوت . وهو قوله تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فوحد بعد ذكر الجمع لما ذكرت والله أعلم .

المناسبة

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

- (١) لأنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين .
- (٢) لأنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك .
- (٣) إن في كل منهما وصف السموات والأرض .
- (٤) إن في كل منهما قصصاً مفصلاً عن إبراهيم عليه السلام .
- (٥) إن في كل منهما تسلية لرسوله ﷺ بذكر ملاقاته الرسل السالفون من أمهم وكانت العاقبة للمتقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يَوْدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ
ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْآمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا
وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٣﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٤﴾

المفردات : ﴿ رَبَّمَا ﴾ : بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها ، كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول . فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل . ﴿ يُلْهِمُهُم ﴾ : أى يشغلهم من قولهم . لهيئت عن الشيء ألهى لهياً إذا عرضت عنه ، ﴿ ما تسبق ﴾ : أى ما يتقدم زمان أجلها . قوله تعالى : ﴿ آلر ﴾ هذه بعض حروف الهجاء التى يقصد منها الإشارة إلى إعجاز هذا الكتاب المنزل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا بطريق التواتر ، المتعبد بتلاوته المتحدى بلفظه . وقد أشار الله تعالى إلى آيات هذا الكتاب ، والقرآن المبين إشارة تفيد تفخيمه وتعظيمه ، فهى آيات بينات ، وهو قرآن واضح بيّن ﴿ وإنه لقرآن كريم ﴾ فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين ﴿ (١) وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، وهو الكتاب الحكيم .

وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، وهو تنزيل من الرحمن الرحيم ، وهو الكتاب المبين ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين .

قوله تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ رُوى في تفسير هذه الآية أقوال مأثورة نلخصها فيما يلي :

نقل السدى في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة : أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً ، وقيل : هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ ولوترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾^(١) .

قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا مسلم حدثنا القاسم حدثنا ابن أبى فروة العبدى أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار ، قال : فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته ، فيخرجهم فذلك حين يقول : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

قال الطبراني بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار ؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقمهم في نهر الحياة فيبرءون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنمين) فقال رجل : (يا أنس أنت سمعت رسول الله ﷺ ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)^(٢) نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا .

قال الطبراني بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا . فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا : ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا — قال ثم قرأ رسول الله ﷺ — أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

(١) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه البخارى في العلم (٣٨) . ومسلم في الإيمان (١١٢) . وأبو داود في العلم (٤) . والترمذى في العلم (٦ ، ٨ ، ١٣) . وابن ماجه في المقدمة (٤ ، ٢٣) . والدارمى في المقدمة (٢٥ ، ٤٦ ، ٥٠) . والإمام أحمد في (١ : ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٢٣) .

وقال الطبراني أيضاً بسنده : عن صالح بن أبي شريف قال : سألت أبا سعيد الخدري فقلت له : هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : في هذه الآية ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ ؟ قال : نعم سمعته يقول : (يخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعد ما تأخذ نقمته منهم) وقال (لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون تزعمون أنكم أولياء الله في هذه الدنيا فما بالكم معنا في النار ، فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم فيشفع لهم الملائكة والنبيون ويشفع المؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم) قال فذلك قول الله ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم ، فيقولون : يارب أذهب عنا هذا الاسم فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن علي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : (منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزتا ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفتني ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان لمن في النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله فحن وأنتم اليوم في النار سواء ، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى فيخرجهم إلى عين في الجنة) . وهو قوله : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ .

قوله تعالى : ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ :

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال : (صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل)^(١) .

وروى عن الحسن أنه قال : « ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العجل » .

وروى عن علي أنه قال : « إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق » .

وفي الآية وعيد شديد للذين يتمرغون في نعم الله ويأكلون من خيره ويعبدون غيره ، فذرهم ودعهم ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾^(٢) ﴿وفي ريبهم يترددون﴾^(٣) ﴿يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾^(٤) ﴿قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾^(٥) . لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد^(٦) .

إن هؤلاء الذين يأكلون ويتمتعون قد أهتهم الآمال عن اقتراب الآجال ، فظنوا أنهم مخلدون ،

(٤) الآية ١٢ من سورة محمد .

(١) أخرجه الإمام أحمد في (٣ : ١٥ ، ١١٩ ، ١٦٩ ، ٢٧٥) .

(٥) الآية ٨ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٩١ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٤٥ من سورة التوبة .

(٦) الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة آل عمران

ونسوا أن الموت يأتيهم بغتة ، كما نسوا يوم الحساب ، فذرهم ولا تكثر عليهم التأسف ، فسوف يعلمون لمن عقبى الدار ، وغداً توفى النفوس ما كسبت ، فالناس غداً بين يدي الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيّعرضون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

قوله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ :

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن القرى التي أهلكها بسبب ظلمها وعتوها ونفورها ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ﴾ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴿ (١) .

ما أهلك الله قرية إلا ولها أجل معلوم ، في كتاب مبين ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ ﴿ (٢) وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ ﴿ (٣) .

وقد أكد الله تعالى معنى الآية في قوله ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ ﴿ فلكل أجله الذى سبق في علم الله وعلم الله قد أحاط بكل شيء ، وما سبق في العلم لا يختلف ولا يتخلف زماناً ولا مكاناً ، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخير ، حقت كلمته أن يهلك من افترى وطغى وبغى ، وأصر وظلم واستكبر .

إذا ما الظلم حل بأرض قوم وعم الفسق وانتشر البلاء
فويل ثم ويل ثم ويل لأهل الأرض من رب السماء

افتراءات باطلة

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذٰلِكَ نَسْلُكُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٥﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصُرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

(١) الأيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص . (٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام . (٣) الأيتان ٨ ، ٩ من سورة الرعد .

المفردات : ﴿ الذكر ﴾ : هو القرآن . ﴿ لوماً ﴾ : مثل (هلا) كلمة تفيد الحث والحض على فعل ما يقع بعدها . ﴿ منظرين ﴾ : أى مؤخرين . ﴿ الشيع ﴾ : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات أو فى المذاهب والآراء . ﴿ نسلكه ﴾ : أى ندخله يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها . ﴿ يعرجون ﴾ : يصعدون . ﴿ سكرت ﴾ : سددت ومنعت من الإبصار .
﴿ مسحورون ﴾ : أى سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات .

المناسبة : بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيما مبالغة ، شرع يذكر بعض مقالاتهم فى محمد ﷺ المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ما هم فيه من جحود وعناد بلغا مدى تنكر معه المشاهدات ، ويدعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله ﷺ تسلياً له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعاً ، فهذا دأب كل مجنون ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم فى الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة ، من صناديد قريش .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين * إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ : يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم ، فى قولهم ﴿ يا أيها الذى نزل عليه الذكر ﴾ : أى الذى تدعى ذلك . ﴿ إنك لمجنون ﴾ : أى فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

﴿ لوما ﴾ أى هلا ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾ أى يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون : ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ (١) .

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ (٢) .

وكذا قال فى هذه الآية ﴿ وما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا منظرين ﴾ :

(١) الآية ٥٣ من سورة الزخرف .

(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الفرقان .

قال مجاهد في قوله ﴿ ما نزل الملائكة إلا بالحق ﴾ : أي بالرسالة والعذاب .

ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل عليه الذكر ، وهو القرآن ، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى ﴿ له لحافظون ﴾ على النبي ﷺ كقوله تعالى ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ (١) والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق .

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ﴾ :

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش : أنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزأوا به .

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى .

قال أنس والحسن البصرى : ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ : يعنى الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ قد خلت سنة الأولين ﴾ أى قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ :

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ، ومكابرتهم للحق ، أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك ، بل قالوا ﴿ إنما سكرت أبصارنا ﴾ :

قال مجاهد وابن كثير والضحاك : سدت أبصارنا .

وقال قتادة عن ابن عباس : أخذت أبصارنا .

وقال العوفي عن ابن عباس : شبه علينا وإنما سحرنا .

وقال الكلبي : عميت أبصارنا .

وقال ابن زيد : سكرت أبصارنا : السكران الذى لا يعقل .

من آيات الله الكونية

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَبِيْنَا فِيهَا رَوَاسِيًّ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

المفردات : ﴿ البروج ﴾ : واحدها برج وهي النجوم العظام ومنها البروج الاثنا عشر المعروفة في علم الفلك . ﴿ للناظرين ﴾ : أى المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها . ﴿ وحفظناها ﴾ : أى منعناها . ﴿ والرجيم ﴾ : أى المرجوم المرمى بالرجام : أى الحجارة والمراد بالرجيم هنا المرمى بالنجوم . ﴿ واسترق ﴾ : من السرقة وهي أخذ الشيء خفية . شبه من خطفتهم اليسيرة من الملاء الأعلى . ﴿ والسمع ﴾ : المراد به ما تسمع . ﴿ والشهاب ﴾ : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب في الجو وتبعت القوم تبعاً وتباعة . ﴿ بالفتح ﴾ : أى مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتم . ﴿ مددناها ﴾ : أى بسطناها . ﴿ الرواسي ﴾ : واحدها راسية وهي الجبال الثوابت . ﴿ موزون ﴾ : أى مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المناسبة

بعد أن ذكر شديد جحودهم ، وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدهم ذلك شيئاً ، حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات ، ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات . أعقب هذا ببيان أنهم كانوا في غنى عن كل هذا ، فإن في السماء وبروجها العالية ، وشموسها الساطعة ، وأقمارها النيرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة ، عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن ادكر ، فهلا نظروا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محددة ، وأوقات معلومة ؟ لا تغيير فيها ولا تبديل ، فبأمثال هذا يكون اليقين وبالتدبير فيه تقوى دعائم الدين ، ويشتد أزر سيد المرسلين ، وهلا رأوا الأرض كيف مدت ، وثبتت جبالها . وأنبتت نباتها بمقادير معلومة موزونة في عناصرها وأوراقها وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معاش للإنسان والحيوان ، أفلا يعتبرون بكل هذا ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (١) .

(١) الآيات ٢٠ ، ٢١ من سورة الذاريات .

قوله تعالى ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ﴾ :

أى وقد خلقنا في السماء نجوماً كباراً ثوابت ، وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة ، التى يحار الفكر فى دقائق صنعها ، وقدره مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ (١) .

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ :

أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وحفظنا من كل شيطان مارد ﴾ (٢) أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميه بالشهب كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد .

﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ : أى لكن من أراد اختطاف شىء مما يتحدث به الملائكة فى الملأ الأعلى ، تبعه كوكب مشتمل ناراً ظاهراً للمبصرين ، فأحرقه ولم يصل إلى معرفة شىء مما يدبر فى ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ﴾ (٣) .

وجاء بمعنى الآية قوله فى سورة الجن ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ (٤) .

وقوله فى سورة الملك ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ (٥) .

وبعد :

فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شىء مما لدى الملائكة الكرام فسلطت عليهم الشهب المشتعلة والنجوم المتقدة فأحرقتهم .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته ، أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، فقال ﴿ والأرض مددناها ﴾ :

أى وقد بسطنا الأرض ، وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق ليتمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل .

وهذا فيما يظهر على مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض . لأن الكرة العظيمة

(١) الآية ٦ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٨ من سورة الصافات .

(٥) الآية ٥ من سورة الملك .

(٤) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الجن .

(٢) الآية ٧ من سورة الصافات .

ترى كالسطح المستوى . ﴿ وَأَلْقينا فيها رواسي ﴾ : أى وجعلنا فيها جبالا ثوابت ، خوف أن تضطرب بسكانها ، كما قال في آية أخرى ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ (١) .

قوله تعالى ﴿ وأنبثنا فيها من كل شيء موزون ﴾ :

أى أن كل نبات قد وُزنت عناصره وقدرت تقديراً ، فترى العنصر الواحد يختلف في نبات عنه في آخر بواسطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة في الأرض ، ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق . والأزهار ، والذي حدد هذا الاختلاف تلك الفتحات الشعرية التي في ظواهر الجذور وثقوب كل نبات لا تسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر ، وتطردها ما سواه ، لأنه لا يلائمها إذ هي قد كونت على هيئة خاصة بحيث لا تبتلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهاك عنصر البوتاس تره يدخل في حب الذرة الذى تأكله بمقدار ٣٢٪ ، وفي القصب ٣٤٣٪ .
وفي البرسيم بمقدار ٣٤٦٪ ، وفي البطاطس بمقدار ٦١٥٪ ، وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكرأ والبرسيم لأن يكون قوتأ للبهائم والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتأ للانسان .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين ﴾

أى أن أنواع معاشكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرنها لكم في الأرض ، فلا السمك في البحر غذيتموه ، ولا الطير في الجو ربيتموه ، ولا غيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .

﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب ، وفي هذا إيحاء إلى أن الله يرزقهم وإياهم ، لا أنهم يرزقونهم ، وفي ذلك عظيم المنة وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا :

أنه سبحانه يسر لكم أسباب المكاسب وصنوف المعاش ، وسخر لكم الدواب التي تركبونها ، والأنعام التي تأكلونها ، والعبيد التي تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لا عليكم ، فلكم منها المنفعة ورزقها على الله تعالى .

الحكمة الإلهية والقدرة الباهرة

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزَايُنُهُ، وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

المفردات : ﴿ الخزائن ﴾ : واحدها خزانة وهي المكان الذي تحفظ فيه نفائس الأموال .
 ﴿ واللواقح ﴾ : واحدها لاقح أى ذات لقاح وحمل . ﴿ وأسقيناكموه ﴾ : أى جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أو لبنا : سقيته . وإذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته . قالوا : أسقيته ، أو أسقيت أرضه أو ماشيته . ﴿ والمستقدمين ﴾ : من ماتوا .
 ﴿ والمستأخرين ﴾ : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

المناسبة

بَيَّنَّ سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معاش في هذه الحياة ، وهنا أتبعه بذكر ما هو كالسبب في ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة والمخلوقات البديعة مما لا حصر له .
 قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزَايُنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ .

هذا من دلائل عظمة الخالق جل جلاله ، له مقاليد السموات والأرض يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم ، وما من شيء في هذا الوجود إلا وخزائنه مملوكة لله ، فالنبات والماء والحيوانات والمال وكل شيء نراه أو لانراه مملوك للواحد الديان ، وينزل على عباده بقدر معلوم ومقدار معين ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ ^(١) ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ^(٢) قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ^(٣) .

(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

(١) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الشورى .

قوله تعالى : ﴿ وَأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾

قال الشيخ المراغي في تفسيرها :

- أى أن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :
- ١ - أن يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار فتغيرها من حال إلى حال ، فعطيها حياة جديدة إذ تزدهر أزهارها وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوحت وأصبحت في مرأى العين كأنها ميتة . لا حياة فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ﴾ (١).
 - ٢ - أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث ، لتخرج الثمر والفواكه للناس .
 - ٣ - أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ما علق بها من الغبار لينفذ الغذاء إلى مسامها ، فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان .

﴿ فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴾ أى فأنزلنا من السحاب مطراً فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفي ذلك استقامة أمور معاشكم ، وتديير شئون حياتكم إلى حين ، كما قال : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ (٢).

﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ : أى ولستم بخازني الماء الذي أنزلناه فتمنعوه من أن أسقيه من أشياء ، لأن ذلك بيدي وهو خاضع لسلطاني إن شئت حفظته على سطح الأرض ، وإن شئت غار في باطنها وتخلل طبقاتها فلا أبقى منه شيئاً ينفع الناس والحيوان ، ويسقي الزرع الذي عليه عماد حياتكم .

والخلاصة : نحن القادرون على إيجاد خزنه في السحاب ، وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين .

وللعلم كلمة : جاء في كتاب القرآن والعلم للدكتور محمد جمال الدين الفندي ما نصه :

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾

قال :

إذ تذكر هذه الآية من إعجاز أحاذ حقيقتين علميتين . الأولى : أن الرياح إنما تلقح السحب لتجود بالمطر ، والثانية : أن هذا المطر لا سبيل إلى خزنه على الدوام في مكان معين من غير أن يتسرب إلى البحر ليم العملية الطبيعية التي نعرفها اليوم باسم (الدورة المائية) أو (دورة الجو المائية) التي تتم بين الجو وماء الأرض .

الآية ٥٧ من سورة الأعراف .

الآية ٣٠ من سورة الأنبياء .

وأن الرياح التي اكتشف العلم أنها من أهم العوامل الأساسية في تلقيح كثير من النباتات ، نجدها تلقح السحاب ليجود بالمطر كذلك ، أن تلقيح الرياح عملية تتضمن إمداده بأكداًس من جسيمات صغيرة مجهرية (نوى - التكاثف) ، هي التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقط المطر النامية ، وأعجب العجب أن العلماء يحاولون في عصرنا هذا تلقيح السحب صناعياً بالطائرات ، أو بمولدات خاصة عن طريق مدها بنوى التكاثف هذه عندما يعجز الهواء ، أو تعجز الرياح عن أداء هذه المهمة طبيعياً .

ومن البديهي أن قد نزلت هذه الآية في زمن لم يكن الناس يعرفون فيه انطلاق مياه البحر على هيئة أبخرة تحملها الرياح ، حتى إذا ما برد الهواء في مناطق تكون السحب تكاثفت أبخرة المياه التي يحملها وتحولت إلى نقط من الماء لا تلبث باستمرار عمليات التكاثف التي تسقط على هيئة مطر يتجمع ماؤه في المجاري والأنهار التي تصب بدورها في المحيطات والبحار لتعيد الكرة من جديد . ولقد كان الرأى السائد أن ماء المطر إنما يأتي هكذا من السماء ، ولم يكن يخطر ببال أحد أن الرياح هي التي تثير السحاب الذي يجود بالمطر حتى أثبت علم الأرصاد الجوية أخيراً في عصر النهضة العلمية أن الأصل في إثارة السحب ونزول المطر هو إرسال الرياح لتتجمع في مكان معين ، بل أن آخر تقسيم علمي أجري لأنواع السحب والأمطار عمل بحيث تطابق أوصافها طبيعية انسياب الرياح التي تثيرها . فهناك السحب الركامية التي تصاحب التيارات الهوائية الرأسية ، وهناك السحب الطبقيّة التي تصاحب انسياب طبقة من الهواء بأكملها في اتجاه صاعد . ومن الأولى تنزل الرخات ومن الثانية يهطل المطر .

والمحيطات هي الوسط الذي يستجيب إلى الرياح ودوراتها ، كما أنها تكون مصادر بخار الماء الرئيسية ، ولهذا نجد أن العلاقة بين الجو والتيارات المائية من أهم الدراسات ، فإن هذه العلاقة تحدد المواسم والبقاع التي تزداد فيها عمليات التبخير ، كما أن التبادل الحراري بين الجو والمحيطات وتياراتها المائية من أهم العوامل التي تؤثر على المناخ .

وبعد .. فإنه لا يسعنا إلا أن نلهج بالثناء لخالق القوى والقدر الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، فانظر إلى السماء وارتفاعها والشمس وشعاعها والأرض واتساعها والبحار وأمواجها والجبال ورسوخها ، الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ويهتف بشكره ولا يغفل عن ذكره ، ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾^(١).

قوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾ :

الإحياء والإماتة من خصائص الألوهية ، والروح والرزق لا يملكهما إلا الله ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾^(٢) ﴿ إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير ﴾^(٣) ﴿ إن الله له ملك السموات

(٣) الآية ٤٣ من سورة ق .

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٤٠ من سورة مريم .

والأرض يحيى ويميت ومالك من دون الله من ولي ولا نصير ﴿١﴾ ، ﴿ سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴿٢﴾ .

إن من أسمائه الحسنی الباعث الوارث ، هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وسبحان من ينادى بعد فناء خلقه : لمن الملك اليوم ؟ فيجيب : لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

نبيكي على الدنيا وما من معشر	جمعتم الدنيا فلم يفرقوا
أين الأكاسرة الجابرة الألى	جمعوا الكنوز فما بقينا ولا بقوا
من ذا الذي ضاق الفضاء بحيشه	حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كألم يعلموا	إن الكلام لهم حلال مطلق

قوله تعالى : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ هذا إخبار منه جلت قدرته لأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ومما علمه تعالى الذين سبقونا إلى الدار الآخرة فهم مستقدمون ، والذين لم يموتوا بعد ، فعندما يأتي أجلهم يذهبون لا محالة .

لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر ، ورأيت قومي نحوها يمضي الأكبر والأصغر ، ولا يرجع الماضي إلّى ولا من الباقين غابر ، أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر .

قوله تعالى : ﴿ وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ . لا مفر من لقاء الله ، فالعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ، ﴿ فإذا برق البصر * وخرسف القمر * وجمع الشمس والقمر ﴾ يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره ﴿٣﴾ .

فكيف تطمئن يا ابن آدم إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء .

ولي في فناء الخلق أكبر عيرة	لمن كان في بحر الحقيقة راقى
شخوص وأشكال تمر وتنقضي	فتفنى جميعاً والمهيمن باقى

إن مردنا إلى الله ، والبعث حق ، والحشر حق ، والحساب حق ، والصراف حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، إن الذي سنحشر إليه حكيم منزه عن العبث ، عليم لا يخفى

(٣) الآيات ٧ - ١٥ من سورة القيامة .

(١) الآية ١١٦ من سورة التوبة .

(٢) الآيات ١ - ٣ من سورة الحديد .

عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يقول وقوله الحق : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ (١) ويقول : ﴿ إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾ (٢).

قصة الإنسان والجن

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا لَكَ أَلا تَتَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ ، مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

المفردات : ﴿ صلصال ﴾ : أى طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقر ، وهو غير مطبوخ فإذا طبخ فهو فخار . ﴿ حمأ ﴾ : أى طين تغير واسود من مجاورة الماء له ، واحدته حمأة . ﴿ مسنون ﴾ : أى مصور مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التي تصب في القوالب . ﴿ والجان ﴾ : أى هذا الجنس ، كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجان أبو الجن . و ﴿ نار السموم ﴾ : هي النار الشديدة الحرارة التي تقتل وتنفذ في المسام . ﴿ بشرا ﴾ : أى إنساناً ، وسمي بذلك لظهور بشرته ، أى ظاهر جلده . ﴿ سويته ﴾ : أى أتمت خلقه وهيأته لنفخ الروح فيه . ﴿ والنفخ ﴾ : إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة على المادة القابلة لها . ﴿ رجيم ﴾ : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة . ﴿ اللعنة ﴾ : الإبعاد على سبيل السخط . ﴿ يوم الدين ﴾ : أى يوم الجزاء . ﴿ فأنظرنى ﴾ : أى أمهلني وأخرني ولا تمتني . ﴿ يوم الوقت المعلوم ﴾ : هو وقت النفخة الأولى حين

(٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة العاشية .

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون .

تموت الخلائق ، كما روي عن ابن عباس . ﴿ الإغواء ﴾ : الإضلال . ﴿ هذا صراط علي ﴾ : أي هذا صراط حق لا بد أن أراعيه . ﴿ مستقيم ﴾ : أي لا انحراف فيه ، فلا يعدل عنه إلى غيره . ﴿ والسلطان ﴾ : التسلط والتصرف بالإغواء . ﴿ سبعة أبواب ﴾ : أي سبع طبقات . ﴿ جزء مقسوم ﴾ : أي فريق معين مفروز من غيره .

ورد في الصحيح : [خلقت الملائكة من نور ، و خلقت الجن من نار ، و خلق آدم مما وصف لكم]^(١) والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارته محتدة .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون ﴾ .

يذكر تعالى تنويبه بذكر آدم في ملائكته وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكبار . وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون ﴾ كقوله : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظريني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ .

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من الزلة التي كان فيها من الملائكة الأعلى ، وأنه رجيم أي مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنة لاتزال به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط على مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب : ﴿ بما أغويتني ﴾ قال بعضهم : أقسم بإغواء الله له ، ويحتمل أنه لسبب ما أغويتني وأضللتنني ﴿ لأزينن لهم ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام ﴿ في الأرض ﴾ أي أحب إليهم المعاصي وأرغبتهم فيها ، وأأزهم إليها وأزعجتهم إليها إزعاجاً ،

(١) رواه أبو داود بنحو هذا اللفظ في الأدب (٣) . والإمام أحمد في ٤ : ٢٢٦ . (٢) الآية ١٢ من سورة الأعراف .

﴿ ولأغويهم أجمعين ﴾ أى كما أغويتني وقدرت عليّ ذلك ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ كقوله :
﴿ رأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾^(١).

قال الله تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ : أى مرجعكم كلكم إليّ ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، كقوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾^(٢) وقيل طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي .

وقوله تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ : أى الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ إلا هنا استثناء منقطع بمعنى لكن . أى ولكن من اتبعك من الغاوين فأنت وشأنك بهم فقد استحبوا العمى على الهدى ، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴿^(٣) ، ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾^(٤) ، ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴿^(٥).

وما أجمل هذا النصح العظيم ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التي كنتم توعدون * اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴿^(٦).

وما أعظم هذا البيان الإلهي الكريم : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾^(٧).

وما أكرم هذا التوجيه الرباني الرائع ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾^(٨).

إن أقصى درجات الضلال أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسناً ، قال تعالى :
﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يبهتدون ﴾^(٩).

ومن هنا يقول تعالى : ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾^(١٠) ، ويقول : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾^(١١).

- (١) الآية ٦٢ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ١٤ من سورة الفجر .
(٣) الآيات ١٢٤ - ١٢٧ من سورة طه .
(٤) الآية ٦ من سورة فاطر .
(٥) الآية ٢١ من سورة النور .
(٦) الآيات ٦٠ - ٦٤ من سورة يس .
(٧) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(٨) الآية ٢٤ كم سورة النمل .
(٩) الآية ١٢١ من سورة الأنعام .
(١٠) الآية ٣٦ من سورة الزخرف .

وإن الشيطان هو ذئب ابن آدم ، مثله في ذلك كذئب الغنم غادر ماكر ، قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾^(١).

وما أروع هذا التصوير التراقي : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى مالا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾^(٢).

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾^(٣).
فاحذروا أيها العقلاء مكايد الشيطان ومصايدِهِ وشباكه وشراكه ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾^(٤). ولا تقنطوا من رحمة الله ولا تيأسوا من روح الله .

لقد قال إبليس لله جل جلاله وعزتك وجلالك لأغوينهم ، مادامت أرواحهم في أبدانهم ، فقال له رب العزة : وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ماداموا يستغفرونني .

سبحانك ربي

أنت الذي تهب الكثير وتجير القلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضي له الحاجات

فبادروا بالأعمال الصالحة سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرمًا مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب فينظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .

قوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ :
هذا إخبار منه تعالى بمصير الغاوين ، وأن مصيرهم إلى جهنم ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾^(٥).

وقال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾^(٦).

(١) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم . (٣) الآيات ١٦ ، ١٧ من سورة الحجر . (٥) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ٤٨ من سورة الأنفال . (٤) الآية ٢٧ من سورة الأعراف . (٦) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

كما أخبر سبحانه إن لجهنم سبعة أبواب ، وإن لكل باب من هذه الأبواب نصيباً معلوماً من الأشقياء ، وذلك لأن جهنم كانت مرصداً ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٤٦﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا بعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴿٤٧﴾ .

إكرام المتقين

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

المفردات : ﴿ المتقون ﴾ : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش وهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها ، ﴿ جنات ﴾ : أى بساتين ، ﴿ وعيون ﴾ : أى أنهار جارية ، ﴿ بسلام ﴾ : أى بسلامة من الآفات ، وأمن من المخافات ، و ﴿ الغل ﴾ : الحقد الكامن في القلب ، و ﴿ السرر ﴾ : واحدها سرير وهو مجلس رفيع مهياً للسرور ، و ﴿ النصب ﴾ : الإعياء والتعب .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الغواية ، وبين أنهم في نار جهنم يخلدون فيها أبداً ، وأنهم يكونون في طبقات بعضها أسفل من بعض ، بمقدار ما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من المعاصي - أردفه ذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ، ووافق بعضهم مع بعض لا ضغن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبداً .

اعلم بأن التقوى هي السلاح الأقوى ، والتقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فمن اتقى الله خافه ومن خاف الله عرفه ، ومن عرف الله أطاعه ومن أطاع الله ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ ذلك الفضل من الله وكفى بالله علماً ﴿٤٨﴾ .

قال تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ ﴿٤٩﴾ وقال : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الأبواب ﴾ ﴿٥٠﴾ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(١) الآية ٣٧ من سورة فاطر .

(٢) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تغلب عرياناً ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

ولقد أعد الله لعباده المتقين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿١﴾ إن المتقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿٢﴾ ، ﴿٣﴾ إن المتقين في جنات وعيون * آخذين ما أتاهم ربهم لأنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴿٤﴾ ، ﴿٥﴾ إن المتقين في جنات ونعيم * فاكهين بما أتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴿٦﴾ ، ﴿٧﴾ متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعتم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين * وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴿٨﴾ .

﴿٩﴾ إن المتقين في مقام أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴿١٠﴾ ، ﴿١١﴾ إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿١٢﴾ ، ﴿١٣﴾ إن للمتقين مفازاً * حدائق وأعناباً * وكواعب أترابا * وكأساً دهاقاً * لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً * جزاء من ربك عطاء حساباً ﴿١٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ أى من كل خوف وفزع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء ﴿ بسلام ﴾ أى سالمين من الآفات ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾ (١٤) فهل بعد السلامة والأمن من شيء يقال ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (١٥) .

إن الله تعالى قدم نعمة الأمن على نعمة الرزق الرغد قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾ (١٦) .

ما قيمة الحياة إذا خلعت من الأمن إنها إذا كانت كذلك صارت فزعاً وقلقاً واضطراباً وجحيماً وغصة وعذاباً ولن يكون هناك أمن بلا إيمان .

- (١) الآيات ٤١ - ٤٤ من سورة المرسلات . (٥) الآيات ٥١ - ٥٦ من سورة الدخان . (٩) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات ١٥ - ١٩ من سورة الذاريات . (٦) الآيات ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر . (١٠) الآية ١٢٢ من سورة النحل .
(٣) الآيات ١٧ - ١٩ من سورة الطور . (٧) الآيات ٣١ - ٣٦ من سورة النبأ .
(٤) الآيات ٢٠ - ٢٨ من سورة الطور . (٨) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ومن رضى الحياة بغير دين
ولا دنيا لمن لم يحى دنيا
فقد جعل الفناء لها قرينا

قوله تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾
روى القاسم عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء
والضعائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ثم قرأ ﴿ ونزعنا ما في
صدورهم من غل ﴾ .

وعن أبي أمامة قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل حتى ينزع منه مثل
السبع الضاري .

وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري حدثهم
أن رسول الله ﷺ قال : (يخلص المؤمنون من النار فيحسبون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتض لبعضهم
من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة)^(١) .

﴿ إخواناً على سرر متقابلين ﴾ : أى ينظر بعضهم إلى بعض ليسوا متدابرين ، إنما إخوة في الله ،
ومستقر في رحمة الله . ﴿ لا يمسه فيها نصب ﴾ يعني المشقة والأذى ، كما جاء في الصحيحين : (إن
الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)^(٢) . وقوله : ﴿ وما هم
منها بمخرجين ﴾ كما جاء في الحديث : (يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا ترضوا أبداً ، وإن لكم
أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً)^(٣) .
وقال تعالى : ﴿ خالدین فیها لا یغنون عنها حولاً ﴾^(٤) .

وعد ووعد وقصص

* نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِيَّهُمْ
عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ

(١) أخرجه البخارى في المظالم (١) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) .

(٢) أخرجه البخارى في النكاح : ١٠٨ ، وفي العمرة : ١١ ، وفي مناقب الأنصار : ٢٠ ، وفي الأدب : ٢٣ ، وفي التوحيد :
٣٢ ، ٣٥ ، ومسلم في فضائل الصحابة : ٧١ - ٧٤ . وابن ماجه في النكاح : ٥٦ . والإمام أحمد في : ٢ : ٢٣١ . وفي ٦ :
٢٠٢ ، ٥٨ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة : ٢٢ . والترمذي في التفسير (سورة ٣٩ : ٩) . والدارمي في الرقاق : ١٠٣ . والإمام أحمد في : ٢ :
٣١٩ ، وفي ٣ : ٣٨ ، ٩٥ .

(٤) الآية ١٠٨ من سورة الكهف .

تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشْرُنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لَمَنِ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَيْلِ وَأَتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لِيَسْتَبْشِرُوا ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنْ هَٰؤُلَاءِ ضَيِّبُنِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعُلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَلْإِسْبِيلَ مُقِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

المفردات : ﴿٥٤﴾ نبيء ﴿٥٥﴾ تقول أنبات القوم إنباء ونبأتهم تنبئة : إذا أخبرتهم ، والأفصح في الضيف : ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك ، ﴿٥٦﴾ والوجل ﴿٥٧﴾ اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، ﴿٥٨﴾ علم ﴿٥٩﴾ أي ذي علم كثير ، ﴿٦٠﴾ بالحق ﴿٦١﴾ أي بالأمر المحقق الذي لا شك في وقوعه ، ﴿٦٢﴾ وقنط من كذا ﴿٦٣﴾ أي يئس من حصوله ، ﴿٦٤﴾ والضالون ﴿٦٥﴾ الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ، ﴿٦٦﴾ وخطبكم ﴿٦٧﴾ أي أمركم وشأنكم الذي لأجله أرسلتم ، ﴿٦٨﴾ قدرنا ﴿٦٩﴾ أي قضينا وكتبنا ، يقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه ، أي جعله على مقدار الكفاية في الخير والشر ، وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، ﴿٧٠﴾ والغابرين ﴿٧١﴾ أي الباقيين مع الكفار ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهي بقية اللبن في الضرع ، ﴿٧٢﴾ منكرون ﴿٧٣﴾ أي لا أعرفكم ولا أعرف من أي الأقوام أنتم ؟ ولأي غرض دخلتم علي ؟ ﴿٧٤﴾ ويمترون ﴿٧٥﴾ أي يشكون ويكذبون به ، ﴿٧٦﴾ فأسر

بأهلك ﴿ : أى اذهب بهم ليلاً ، ﴿ والقطع من الليل ﴾ : الطائفة منه ، ﴿ اتبع أديبارهم ﴾ : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ، ﴿ وقضينا ﴾ : أى أوحينا ، ﴿ ودابر ﴾ : آخر ، ﴿ ومقطوع ﴾ : أى مهلك مستأصل ، ﴿ مصبحين ﴾ : أى في وقت الصباح ، ﴿ والمدينة ﴾ : هي سدوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط ، ﴿ والاستبشار ﴾ : إظهار السرور ، ﴿ والفضيحة ﴾ : إظهار ما يوجب العار ، ﴿ والخزى ﴾ : الذل والهوان ، ﴿ والعمر والعمر ﴾ : (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لا غير ، ﴿ سكرتهم ﴾ : غوايتهم ، ﴿ يعمهون ﴾ : أى يتحIRON ، ﴿ والصيحة ﴾ : الصاعقة ، وكل سقى وأهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، ﴿ ومشرقين ﴾ : أى داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس ، ﴿ والسجيل ﴾ : الطين المتحجر ، ﴿ للمتوسمين ﴾ : أى المتفرسين الذين يبتعون في نظرهم ليعرفوا سمة الشيء وعلامته ، يقال توسمت في فلان خيراً : أى ظهرت منه علاماته ، ﴿ لبسيل مقيم ﴾ : أى لبطريق واضح مُعلم ليس بخفي ولا زائل ، ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ : قوم شعيب عليه السلام ، ﴿ والأيكة ﴾ : الغيضة ، وهي الشجر الملتف بعضه على بعض وقد كانوا في مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، ﴿ لبإمام ميين ﴾ : أى لبطريق واضح وأصل الإمام ما يؤتم به سمي به الطريق لأنه يؤتم ويتبع ، ﴿ وأصحاب الحجر ﴾ : هم ثمود ، ﴿ والحجر ﴾ : واد بين المدينة والشام وكانوا يسكنون ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجراً ومنه حجر الكعبة ، ﴿ وآياتنا ﴾ : هي الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها ، وكثرة لبنها وكثرة شربها ، والإمام ما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تُسلك .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعد به أهل الغواية في يوم القيامة من دخول جهنم ، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين بحسب اختلاف أحوالهم بمقدار ما دنسوا به أنفسهم من اتخاذ الأنداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعم المقيم والراحة التي لانصب بعدها ولا تعب ، وجلوس بعضهم مع بعض يتجادبون أطراف الحديث وهم في سرور وحبور على سرر متقابلين أردف ذلك بخلاصة لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصي ولم يتوبوا منها .

ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بسلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى الموبقات ، وفضيع الجنائيات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى صاروا كأسس الدابر ، وأصبحوا أثراً بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله ونقصهم للمكائيل والموازن ، فانتقم الله منهم بعداب يوم الظلة ، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحاً وكانوا ذوى حول وطول وغنى ومال ، وقوة وبطش ، فأعرضوا عن آيات

رهبهم حينما جاءتهم على يدي رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم ما لهم من دون الله شيئاً حين جاء أمره .

قوله تعالى : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ :

ذكر في سبب نزولها مارواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال : مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال : (اذكروا الجنة واذكروا النار) فنزلت الآية . (رواه ابن أبى حاتم وهو مرسل) .

وقال سعيد عن قتادة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : (لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه) .

وهكذا حال المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، حتى يقوم الوزن بالقسط ، وتقف النفس على حقيقة الاعتدال فالخوف دائماً يذكرها بما بعد الموت من حساب وأحوال . والرجاء يفتح لها أبواب رحمة الله التي وسعت كل شيء . وميزان الإسلام عادل مستقيم لا تهويل ولا تهوين ولا إفراط ولا تفريط .. لا غلو ولا انحلال ولا تطع ولا تحلل . قال جل شأنه : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ (١) وقال : ﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ :

هذا جانب الوعيد بعد الوعد وجانب الخوف بعد الرجاء حتى لا يغتر العبد بكرم ربه فيقال له : ﴿ ياأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ﴾ (٣) .

وحتى لا يتمنى على الله الأمان فيقال له : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

قوله تعالى : ﴿ ونبتهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون * قالوا لا تؤجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشروني على أن منسني الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرنالك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

في هذا المشهد القرآني الكريم يأمر الله الرسول ﷺ أن ينبئ أمته ويخبرهم عن ضيف إبراهيم عندما دخلوا عليه وألقوا السلام ، فردّ عليهم كما جاء ذلك في سورة هود .

قال تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام ﴾ (٤) .

وهنا قال تعالى : ﴿ إنا منكم وجلون ﴾ أى خائفون . وقد جاء تفسير ذلك في سورة هود .

(٣) الآية ٦ من سورة الانفطار .

(٤) الآية ٦٩ من سورة هود .

(١) الآية ٦ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

قال جل شأنه : ﴿ فلما لبث أن جاء بعجل حنينذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تحف ﴾^(١) وهنا يقول تعالى : ﴿ قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ وكان ذلك الغلام إسحاق ، كما جاء بيان ذلك في سورة هود . قال تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ قال أبشروني على أن مسنى الكبر فم تبشرون ﴾ .
 أى . أيولد لى غلام وقد بلغت من الكبر عتيا ، فجاء الرد . قالوا : ﴿ بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ والمراد بالحق : الأمر الثابت المتحقق الوقوع الذي لا مرأه فيه ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ أى اليائسين .

﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ وحاشا أن يقنط المؤمن من رحمة الله . وقد جاء في سورة هود ، قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت * إنه حميد مجيد ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين * إلا امرأته قدّرتنا إنها من الغابرين ﴾

لما سمع إبراهيم البشرى من ضيفه المكرمين وكانوا من ملائكة الرحمن وذهب عنه الروع ، سأهم : ما خطبكم ؟ وما شأنكم ؟ وهل كان مجيئكم خاصاً بتلك البشرى ؟ أخبروه بأنهم قد أرسلوا إلى قوم مجرمين ، وهم قوم لوط . وأن الله تعالى سيهلكهم وسينجي آل لوط إلا امرأته فإنها باقية في العذاب . قال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية * إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾^(٤)

قوله تعالى : ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾ .

وهكذا ينتقل الحديث بنا إلى لوط وقومه : لقد ذهبت الملائكة إلى لوط فأنكرهم إذ لم يسبق له بهم عهد ، ولم يرههم من قبل بهيئتهم تلك قال : إنكم قوم منكرون ، قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون أى يشكون ويترددون . وسواء أكان هذا الذي يمترون فيه هو الحق الذي بعثت به الرسل أم العذاب النازل بهم عما قليل .

﴿ وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾ : والملائكة لانزل إلا بالحق . قال تعالى : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾^(٤) . وقولهم ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أى فيما وعدناك به من نجاتك ونجاة أهلك .

(٣) الآيات ٣١ ، ٣٢ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ٨ من سورة الحجر .

(١) الآية ٥٣ من سورة الحجر .

(٢) الآيات ٧١ - ٧٢ من سورة هود .

قوله تعالى : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل وأتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون ﴾ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴿ :

هذا أمر من الله تعالى لنبية لوط أن يسير بأهله بجزء من الليل ، وأن يسير وراءهم حتى يرعى شئونهم ، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ في الغزو ، كما نهاهم عن أن يلتفت منهم أحد إذا سمعوا صيحة العذاب قد حلت بالقوم ، كما أمرهم أن يمضوا في سيرهم حيث يؤمرون ، وقضى إليه ذلك الأمر وأنها إلى علمه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وأن عذاب الاستئصال لن يبقى منهم ولن يذر كما قال تعالى : ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد ﴿^(١).

وقوله تعالى : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ﴾ واتقوا الله ولا تخزون ﴿ قالوا أولم ننهك عن العالمين ﴾ قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴿ :

لما علم قوم لوط بأن عنده ضيفاً جاءوا يستبشرون فرحين ، فقد رأوا فيهم جمال الخلق ووضاءة الوجوه . وأراد لوط أن يحمي الضيف من عبث هؤلاء المجرمين فقال لهم : ﴿ إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ﴾ فإن إكرام الضيف واجب ، وليس من إكرامه أن يُساء إليه ، فالكرم من شيم الرجال ، والإساءة من خصال اللئام . قال تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ﴾^(٢).

قال لهم لوط : ﴿ اتقوا الله ولا تخزون ﴾ أى ﴿ ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴾^(٣) وهنا يقول لهم : ﴿ اتقوا الله ﴾ ليشير في أنفسهم كوامن النخوة والمروءة وشهامة الرجال ، لكنهم كانوا لئاماً لا يرقبون إلاّ ولا ذمة ولا يُراعون ضيفاً ولا جاراً : ﴿ قالوا أولم ننهك عن العالمين ﴾ ، ﴿ قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴿ .

يخبر تعالى بأن قوم لوط أجابوه قائلين ﴿ أولم ننهك عن العالمين ﴾ أى أوما نهيناك أن تضيف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نساتهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة ، وهذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصحبهم من العذاب المستقر ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وفي هذا تشریف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض .

عن ابن عباس أنه قال : (ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره) .

قال تعالى : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ يقول : وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ رواه ابن جرير .

(١) الآيات ٨١ - ٨٢ من سورة هود . (٢) الآية ٣٧ من سورة القمر . (٣) الآية ٧٨ من سورة هود .

وقال قتادة : ﴿ في سكرتهم ﴾ أى في ضلالتهم ، ﴿ يعمهون ﴾ أى يلعبون وقيل يترددون .
قوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من
سجيل * إن في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنما لبسيل مقيم * إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ :
يقول تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ : وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس
وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عليها سافلها وإرسال حجارة
السجيل عليهم وهو الطين المتحجر .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ : أى إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن
تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ، كما قال مجاهد في قوله ﴿ للمتوسمين ﴾ قال المتفرسين . وعن ابن
عباس والضحاك : للناظرين .

وقال قتادة : للمعتبرين . وقال مالك عن بعض أهل المدينة : ﴿ للمتوسمين ﴾ للمتأملين .
عن أبي سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)^(١) ثم
قرأ النبي ﷺ ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ رواه الترمذي .

وعن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ : (إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم) .
قوله تعالى : ﴿ وإنما لبسيل مقيم ﴾ أى وإن قرية سدوم التي أصابها مأسابها من القلب السوري
والمعنوى والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة متنتة خبيثة بطريق مهيع مسالكة مستمرة إلى اليوم
كقوله : ﴿ وإنكم لثمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون * وإن يونس لمن المرسلين ﴾^(٢) .
وقال مجاهد والضحاك : ﴿ وإنما لبسيل مقيم ﴾ قال معلم . وقال قتادة : بطريق واضح ، وقال
قتادة أيضاً : بصقع من الأرض واحد . وقال السدي : بكتاب مبين معنى كقوله : ﴿ وكل شيء
أحصيناه في إمام مبين ﴾^(٣) .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ : أى إن ما وقع بقوم لوط من العذاب حيث جعلنا عليها
سافلها لآية بينة وعبرة واضحة لكل مؤمن مصدق بما أنزل الله على رسوله ، كما أن في إنجائنا لوطاً ومن
آمن به آية بينة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قوله تعالى : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإنما لبإمام مبين ﴾ : المقصود
بأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام . قال تعالى : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال
لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى
إلا على رب العالمين ﴾^(٤) .

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة
والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان .

(٣) الآية ١٢ من سورة يس .

(٤) الآيات ١٧٦ - ١٨٠ من سورة الشعراء .

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ١٥ : ٦ .

(٢) الآيات ١٣٧ - ١٣٩ من سورة الصافات .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا لِبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ : أى طريق مبين قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره : طريق ظاهر . ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم ﴿ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾^(١) .
قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يُنْحَتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبِوتاً آمِنِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً عليهم عليه السلام من كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، لأن الأنبياء جميعاً عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(٢) .

ولذلك فقد أفرد الله تعالى الأنبياء في لفظ رسول في قوله جل شأنه : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾^(٣) ومن كلامه ﷺ « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله »^(٤) .

جاء في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٥) .
قال تعالى في سورة الحجر : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ : وهذه الآيات معجزات خارقة للعادة تدل على صدق من ظهرت على يديه من الأنبياء ، مع عجز جميع الخلق عن الإتيان بمثلها ، وقد كانت معجزة صالح الناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب وهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مُكَذَّبٍ ﴾^(٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾^(٧) . وذكر تعالى أنهم : ﴿ وَكَانُوا يُنْحَتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبِوتاً آمِنِينَ ﴾ أى من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراً وبطراً وعبثاً كما هو المشاهد من صنعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك ، فنقع رأسه وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : (لا تدخلوا بيوت المعذنين إلا أن تكونوا ياكين فإن لم تبكوا فتيكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم)^(٨) .

وقوله : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ : أى وقت الصباح من اليوم الرابع . ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لثلا تضيق عليهم في الحياة فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعمهم لما جاء أمر ربك .

(٥) الآيات ١٤١ - ١٤٥ من سورة الشعراء .

(٦) الآية ٦٥ من سورة هود .

(٧) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٨) أخرجه ابن ماجه في الإقامة : ١٧٦ .

وفي الزهد : ١٩ .

(١) الآية ٨٩ من سورة هود .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيات ٩ ، ١٠ من سورة الخافة .

(٤) الحديث أخرجه الإمام مالك في القرآن : ٣٢ . وفي الحج : ٢٤٦ .

عقائد وتوجيهات

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ أَنْ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ لَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ بالحق ﴾ : بالحكمة والمصلحة . ﴿ الصفح الجميل ﴾ : ترك التثريب واللوم . ﴿ المثاني ﴾ : واحداها مثني من التثنية وهو التكرير والإعادة . ﴿ ومد عينيه إلى مال فلان ﴾ : اشتباه وتمناه . ﴿ الأزواج ﴾ : واحداها زوج وهو الصنف . ﴿ وخفض الجناح ﴾ : يراد به التواضع وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحه له والجناحان من الإنسان : جانباه . ﴿ والنذير ﴾ : الخوف بعقاب الله من لم يؤمن به . ﴿ وعضين ﴾ : أى أجزاء واحداها عضة من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساماً . ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ : أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً يضيق صدرك : أى ينقبض من الحسرة والحزن . ﴿ والساجدين ﴾ : أى المصلين . ﴿ اليقين ﴾ : الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لاشك فيه .

المناسبة

بعد أن ذكر في القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسالتها وعذابها بشتى أنواع العذاب كفاء ما دنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك وأنواع المعاصي التي تقوض دعائم الإخلاص لبارئ السم وتهد أركان نظم المجتمع ، بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطيف الكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التي تشتمر منها النفوس ، وتنفر منها الأدواق السليمة ، أرشد هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ما قضت به الحكمة والمصلحة من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعة واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعاً لشرورهم وإصلاحاً لمن يأتي بعدهم .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ : أى بالحكمة والعدل . ما خلقناهما عبثاً ولا ظلماً ولا باطلاً .

قال تعالى : ﴿ والله ما في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ (١) وقال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ (٢) ، وقال جل شأنه : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ (٣) وقال عظمت حكمته : ﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ : الساعة من أسماء القيامة ، قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ (٧) .

ثم يأمر الله تعالى حبيبه ومصطفاه بالصفح الجميل الذي لا شكوى فيه ، كما أمره بالصبر الجميل في قوله جل شأنه : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبراً جميلاً ﴾ (٨) كما أمره بالهجر الجميل في قوله : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ (٩) . وهكذا دعوة الإسلام صفح جميل وصبر جميل وهجر جميل ، وقد صدق الله إذ يقول لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١٠) .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ : أى الذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديراً فهو مبدع الكائنات وموجد الخلائق فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابتك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان . إن الذي خلق السموات والأرض بالحق قادر على إحياء الموتى عند قيام الساعة .

(٦) الآية الأولى من سورة الحج .

(٧) الآيات ٤٢ - ٤٦ من سورة النازعات .

(٨) الآيات ١ - ٤ من سورة المعارج .

(٩) الآية ١٠ من سورة المزمل .

(١٠) الآية ٤ من سورة القلم .

(١) الآية ٣١ من سورة النجم .

(٢) الآية ٢٧ من سورة ص .

(٣) الآيات ١٦ - ١٨ من سورة الأنبياء .

(٤) الآيتان ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون .

(٥) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

قال تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ (١).

قال تعالى : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ (٢).

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ :

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يصبر على أذى قومه وأن يصفح عنهم الصفح الجميل ، أردف ذلك ذكر ما أولاه من النعم وما أعقد عليه من الإحسان ليسهل عليه الصفح ويكون فيه سلوة على احتمال الأذى فذكر أنه آتاه السبع المثاني (الفاتحة) والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم في دنياهم وآخرتهم .

وبعد أن ذكر له مظاهر نعمه عليه نهاه عن الرغبة في الدنيا ومد العينين إليها يتمنى ما فيها من متاع ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن وبما جاء به وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين وبإندثار قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه بالبيان الكافي والإعزاز الشافي وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين (اليهود والنصارى) الذين جعلوا القرآن آفاقاً فأمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك وبيّن لهم أن ربهم سيسألهم عن جريرة أعمالهم ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتثريبهم له ولا ييال بما سيكون منهم .

فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم ، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر فليسبح ربه وليحمده وليكثر له الطاعة .

فالعبد إذا حزنه أمر فزع إلى طاعة ربه ، وقد تكفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه .

المراد بالسبع المثاني سورة الفاتحة ، وهي سبع آيات وروى ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس . قال ابن عباس والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها وبه قال إبراهيم النخعي والحسن البصري وقتادة ومجاهد .

وقال قتادة : ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب ، وأنهم يثنون في كل ركعة مكتوبة أو تطوع .

روى البخاري بسنده عن أبي سعيد بن المعلّى قال مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آتته حتى صليت فأتيته فقال : (ما منعك أن تأتيني) فقلت : كنت أصلي فقال : (ألم يقل الله : ﴿ يا أيها الذين

(١) الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة يس .

(٢) الآية ٤ من سورة ق .

آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴿ : ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ﴾ .

فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته ^(١) .

وقد عطف القرآن العظيم على السبع المثاني من باب عطف العام على الخاص كما في قوله تعالى ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ : أى استعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن هنا ذهب ابن عيينه إلى تفسير الحديث الصحيح (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) ^(٢) إلى أنه يستغنى به عما عداه

قال ابن عباس ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ قال نهى الرجل أن يتمنى فالصاحبه وقال مجاهد ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ هم الأغنياء .

وقوله ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ : أى لا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنما عليك البلاغ إن أنت إلا نذير ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ : أى ألن جانبك لمن اتبعك من المؤمنين ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ ^(٣) .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ^(٤) .
﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ : يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس ﴿ إني أنا النذير المبين ﴾ :
البيان النذارة نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم في تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام .

وقوله : ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ .

أى ولقد آتيناك سبعاً من المثاني كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والانجيل وهم الذين اقتسموا القرآن وجزعوه أجزاء فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما .

وبعد أن بين وظيفة الرسول ﷺ ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال :
﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾ : أى فلنسألن الكفار جميعاً سؤال تأنيب وتوبيخ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى وبتوحيدي

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١ : ١ ، في تفسير سورة ١٥ : ٣ . وفي فضائل القرآن : ٩ . والترمذي في ثواب القرآن : ١ . والنسائي في الاقتراح : ٢٦ . والإمام مالك في النداء : ٣٧ . والإمام أحمد في ٤ : ٢١١ ، وفي ٥ : ١١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد : ٤٤ . وأبو داود في الوتر : ٢٠ . والدارمي في الصلاة : ١٧١ ، وفي فضائل القرآن : ٣٤ . والإمام أحمد في ١ : ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ .

(٣) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران . (٤) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

والبراءة من الأنداد والأوثان روى أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في تفسير الآية يسأل الله العباد كلهم عن تَحَلُّتَيْن يوم القيامة عما كانوا يعبدون وعماداً أجازوا المرسلين .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ (يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه . وعن فتات الطينة بأصبعه فلا أَلْفَيْتُكَ يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك) .

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدد عليه في الجهر به جهد المستطاع فقال : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ : أى فاجهر بإبلاغ ما أمرت به من الشرائع وواجه به المشركين ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تخفهم فإن الله كافيك وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصراع شديداً عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكاله منهم فلا يخشى بأسهم فقال : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ : أى إنا كفيناك شر المستهزئين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله ﷺ حين يرونه أو يمر بهم أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم .

وقد اختلف في عدتهم فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدى بن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب . وقد ماتوا جميعاً بأهون الأسباب فتعلق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقاً في عقبه فمات .

ومات العاص بشوكة في إخمص قدمه وأصاب عدى بن قيس مرض في أنفه فمات وأصيب الأسود ابن عبد يغوث بداء وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات . وعمى الأسود بن عبد المطلب . وقوم يقولون هم سبعة من أشرف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال : ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ﴾ : أى هم الذين اتخذوا إلهاً آخر مع الله يعبدونه وفي وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله ﷺ وتهوين للخطب عليه إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة بل تعدوه إلى الإشراك بربهم المدبر لأمرهم والمحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ : عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم يوم تجزى كل نفس بما علمت يوم ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (١) .

وبعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تسليه أخرى له فقال : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ : من كلمات الشرك والاستهزاء كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الإنسان ما يؤلمه ويحزنه أن يرى في نفسه انقباضاً وضيقاً في الصدر وأسى وحسرة على ما حل به .

ثم أمره سبحانه بأن يفرع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسييح الله وحمده فقال : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ : أى إذا نزل بك الضيق ووجهت نفسك فافزع إلى ربك ونزهه عما يقولون ، حامداً له على توفيقك للحق وهدايتك إلى سبيل الرشاد وصل آناء الليل وأطراف النهار فإن في مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس ويسمو بنفسك إلى الملأ الأعلى كما ورد في الحديث : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)^(١) .

ودم على ما أنت عليه طالباً المزيد من فضله حتى يأتيك الموت فهناك الجزاء بلا عمل وهنا العمل ولا جزاء .

وقصارى ذلك : أنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده في نفسه من الغم بفعل الطاعات والاكثار من العبادات وقد كان عليه السلام إذا حزته أمر أو اشتد عليه خطب فزع إلى الصلاة .

روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال تعالى : ﴿ يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره ﴾^(٢) .

وقد حكى الله عن أهل النار أنهم يقولون ﴿ لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين ﴾^(٣) .

وفي هذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء مادام ثابت العقل .

روى البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب)^(٤) .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة : ٢١٥ . والنسائي في المواقيت : ٣٥ ، وفي التطبيق : ٧٨ . والترمذي في الدعوات : ١١٨ . والإمام أحمد في ٢ : ٤٢١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٥ : ٢٨٦ ، ٢٨٧ . وفي ٦ : ٤٤٠ ، ٤٥١ .

(٣) الآيات ٤٣ - ٤٧ من سورة المدثر .

(٤) أخرجه البخاري في التقصير : ١٩ .

سورة النحل

مقدمة

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مكية ، لإقوله ﴿ وإن عاقبتم فاعقبوا ﴾ إلى آخر السورة .

عدد آياتها مائة وثمانية وعشرون .

وكلماتها ألفان وثمانمائة وأربعون .

وحرروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف .

وسميت سورة النحل لما فيها من عجائب ذكر النحل .

معظم ما أشتملت عليه السورة :

تخويف العباد بمجىء القيامة ، وإقامة حجة الوجدانية ، وذكر ما في الأنعام من المنافع والنعم ، وما في المراكب من التجميل والزينة ، وذكر النبات والشجر وتسخير الشمس والقمر ، وتثبيت الأرض والجبال والحجر ، وهداية الكواكب في السفر والحضر ، والنعم الزائدة عن العد والإحصاء .

والإنكار على أهل الإنكار ، وجزاء مكر المكّار ، ولعنة الملائكة على الأشرار ، عند الاحتضار ، وسلامهم في ذلك الوقت على الأبرار والأخيار .

وبيان أحوال الأنبياء والمرسلين مع الأمم الماضين ، وذكر الهجرة والمهاجرين ، وذكر التوحيد ، وتعريف المنعم ، ونعمة السابغات ، ومذمة المشتركين بؤاد البنات ، وبيان الأسماء والصفات .

والمنة على الخلائق بإنزال الرحمات ، وعدّها من الإناعم في باب الأنعام والحيوانات ، وبيان فوائد النحل ، وذكر ما اشتمل عليه من عجيب الحالات ، وتفضيل الخلق في باب الأرزاق والأقوات ، وبيان حال المؤمن والكافر ، وتسخير الطيور في الجو صافات ، والمنّة بالمساكن والصحارى والبريات ، وشكايه المتكبرين .

وذكر ما أعدّ لهم من العقوبات ، والأمر بالعدل والإحسان ، والنهي عن نقض العهد والخيانات ، وأن الحياة الطيبة في ضمن الطاعات ، وتعلم الاستعاذة بالله في حال تلاوة الآيات المحكمات ورد سلطان الشيطان عن المؤمنين والمؤمنات ، وتبديل الآيات بالآيات ، لمصالح المسلمين والمسلمات ، والرخصة بالتكلم بكلمة الكفر عند الإكراه والضرورات ، وبيان التحريم والتحليل في بعض الحالات .

وذكر إبراهيم الخليل وما منحه من الدرجات ، وذكر السبب والدعاء إلى سبيل الله بالحكمة والعظمت الحسنات ، والأمر بالتسوية في المكافآت بالعقوبات ، والأمر بالصبر على البليّات ، ووعد المتقين والمحسنين بأعظم الثوابات ، بقوله : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

المتشابهات

فيها في موضعين ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ : بالجمع . وفي خمسة مواضع ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ : على الوحدة . أما الجمع فلموافقة قوله : ﴿ مستخرات ﴾ : في الآيتين لتقع المطابقة في اللفظ والمعنى . وأما التوحيد فلتوحيد المدلول عليه .

من الخمس قوله : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ : وليس له نظير . وخص بالذكر لاتصاله بقوله : ﴿ وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ : فإن اختلاف ألوان الشيء وتغير أحواله يدل على صانع حكيم لا يشبهها ولا تشبهه ، فمن تأمل فيها اذكر .

ومن الخمس : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يفكرون ﴾ : في موضعين ، وليس لهما نظير : ونخصتنا بالفكر ، لأن الأولى متصلة بقوله : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ : وأكثرها للأكل ، وبه قوام البدن فيستدعى تفكيراً وتأملأ ، ليعرف به المنعم عليه فيشكره .

والثانية متصلة بذكر النحل ، وفيها أعجوبة : من انقيادها لأمرها ، واتخاذها البيوت على أشكال يعجز عنها الحاذق منا ، ثم تتبّعها الزهر والطلّي من الأشجار ، ثم خروج ذلك من بطونها لعاباً ، فاقضى ذلك فكراً بليغاً ، فختم في الآيتين بالتفكير .

قوله : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ : وفي الملائكة (فاطر) ﴿ وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا ﴾ ^(١) .

في هذه السورة جاء على القياس ، فإن ﴿ الفلك ﴾ المفعول الأول لترى ، و ﴿ مواخر ﴾ المفعول الثاني ، و ﴿ فيه ﴾ ظرف ، وحقه التأخر . والواو في ﴿ ولتبتغوا ﴾ للعطف على لام العلة في قوله : ﴿ لتأكلوا منه ﴾ .

وأما في الملائكة فقدّم ﴿ فيه ﴾ موافقة لما قبله ، وهو قوله : ﴿ لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ فقدم الجار والمجرور ، على الفعل والفاعل ولم يزد الواو على ﴿ لتبتغوا ﴾ : لأن اللام في (لتبتغوا) هنا لام العلة ، وليس يعطف على شيء قبله .

ثم إن قوله : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ و ﴿ وفيه مواخر ﴾ اعتراض في السورتين يجرى مجرى المثل ، ولهذا وّحد الخطاب . وهو قوله : ﴿ وترى ﴾ وقبله وبعده جمع ، وهو قوله : ﴿ لتأكلوا ﴾ و ﴿ تستخرجوا ﴾ و ﴿ لتبتغوا ﴾ .

وفي الملائكة ﴿ تأكلون ﴾ و ﴿ تستخرجون ﴾ ﴿ لتبتغوا ﴾ ومثله في القرآن كثير ، منه ﴿ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ﴾ ^(٢) .

وكذلك ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾^(١) ، ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾^(٢) وأمثاله .
 أى لو حضرت أيها المخاطب لرأيت في هذه الصفة ، كما تقول : أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل .
 قوله : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ : وبعده : ﴿ وقيل للذين اتقوا
 ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾ : إنما رفع الأول ، لانهم أنكروا إنزال القرآن ، فعدلوا عن الجواب ،
 فقالوا : أساطير الأولين . والثاني من كلام المتقين ، وهم مقرّون بالوحى والإنزال ، فقالوا : خيراً ، أى
 أنزل خيراً ، فيكون الجواب مطابقاً ، و ﴿ خيراً ﴾ : نصب بأنزل . وإن شئت جعلت ﴿ خيراً ﴾ :
 ففعل القول . أى : قالوا خيراً ولم يقولوا شراً كما قالت الكفار . وإن شئت جعلت ﴿ خيراً ﴾ : صفة
 مصدر محذوف . أى قالوا قولاً خيراً .

قوله : ﴿ فلبس مشى المتكبرين ﴾ : ليس في القرآن نظيره للعطف بالفاء على التعقيب في قوله :
 ﴿ فادخلوا أبواب جهنم ﴾ : واللام للتأكيد تجرى مجرى القسم موافقة لقوله : ﴿ ولنعم دار
 المتقين ﴾ : وليس له نظير ، وبينهما : ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ .

قوله : ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ : هنا وفي الجاثية وفي غيرها ﴿ ما كسبوا ﴾ : لأن العمل
 أعم من الكسب ، ولهذا قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾^(٣) .
 وخصت هذه السورة ﴿ بالعمل ﴾ لموافقة ما قبله : ﴿ ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما
 كنتم تعملون ﴾ : ولموافقة ما بعده وهو قوله : ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت ﴾ : ومثله : ﴿ ووفيت
 كل نفس ما عملت ﴾ في الزمر . وليس لها نظير .

قوله : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم فسمتعوا فسوف تعلمون ﴾ : ومثله في الروم وفي العنكبوت :
 ﴿ وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾^(٤) باللام والياء . أما التاء في السورتين فبإضمار القول أى قل لهم :
 تمتعوا ، كما في قوله : ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾^(٥) وكذلك : ﴿ قل تمتع بكفرك ﴾^(٦) .

وخصصت هذه السورة بالخطاب لقوله : ﴿ إذا فرقت منكم ﴾ : وألحق ما في الروم به . وأماً
 ﴿ ما ﴾ : في العنكبوت فعل القياس ، عطف على اللام قبله وهى للغائب .

قوله : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ : وفي الملائكة (فاطر) :
 ﴿ بما كسبوا ما ترك على ظهرها ﴾^(٧) الهاء في هذه السورة كناية عن الأرض ولم يتقدم ذكرها . والعرب
 تجوز ذلك في كلمات منها الأرض ، تقول : فلان أفضل من عليها ، ومنها السماء ، تقول : فلان أكرم
 من تحتها ، ومنها الغداة (تقول) : إنها اليوم لباردة . ومنها الأصابع تقول : والذي شقهن خمساً من
 واحدة ، يعنى الأصابع من اليد .

(٧) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٤) الآية ٦٦ من سورة العنكبوت .

(١) الآية ٢٩ من سورة الفتح .

(٥) الآية ٣٠ من سورة إبراهيم .

(٢) الآية ٧٥ من سورة الزمر .

(٦) الآية ٨ من سورة الزمر .

(٣) الآيات ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

وإنما جَوَّزُوا ذلكَ لحصولها بين يَدَيْ متكلم وسامع . ولما كان كناية عن غير مذكور لم يُزِد معه الظهر لئلا يلتبس بالدابة ، لأن الظهر أكثر ما يستعمل في الدابة ، قال (ص) : « إن المنبت لأرضاً قطع ولا ظهرها أبقى » .

وأما في الملائكة فقد تقدّم ذكر الأرض في قوله : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ ^(١) وبعدها : ﴿ ولا في الأرض ﴾ فكان كناية عن مذكور سابق ، فذكر الظهر حيث لا يلتبس .

قال الخطيب : إنما قال في النحل : ﴿ بظلمهم ﴾ ولم يقل ﴿ على ظهرها ﴾ احترازاً عن الجمع بين الظالمين ، لأنها تثقل في الكلام وليست لأمة من الأمم سوى العرب . قال : ولم يجيء في هذه السورة إلا في سبعة أحرف ، نحو الظلم والنظر والظل ، وظل وجهه والظفر والعظم والوعظ ، فلم يجمع بينهما في جملتين معقودتين عقْد كلام واحد ، وهو لو وجوابه .

قوله : ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ : وفي العنكبوت : ﴿ من بعد موتها ﴾ . وكذلك حذف (من) من قوله : ﴿ لكى لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ وفي الحج ﴿ من بعد علم شيئاً ﴾ فحذف (من) في قوله : ﴿ بعد موتها ﴾ موافقة لقوله : ﴿ بعد علم شيئاً ﴾ وحذف (من) في قوله : ﴿ بعد علم شيئاً ﴾ لأنه أجمل الكلام في هذه السورة ، فقال : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ وفصله في الحج فقال : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ إلى قوله : ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ فاقضى الإجمال الحذف والتفصيل الإثبات فجاء في كل سورة ما اقتضاه الحال .

قوله : ﴿ نسفيكم مما في بطونه ﴾ : وفي المؤمنين ﴿ في بطونها ﴾ لأن في هذه السورة يعود إلى البعض وهو الإناث لأن اللين لا يكون للكل . فصار تقدير الآية : وإن لكم في بعض الأنعام ، بخلاف ما في المؤمنين ، فإنه لما عطف ما يعود على الكل ولا يقتصر على البعض .

وهو قوله : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها ﴾ : لم يحتمل أن يكون المراد البعض ، فأنث حملاً على الأنعام وما قيل : إن (الأنعام) مهناً بمعنى النعم لأن الألف واللام يُلحق الآحاد بالجمع والجمع بالآحاد حسنٌ ، إلا أن الكلام وقع في التخصيص .

قوله : ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ : وفي العنكبوت ﴿ يكفرون ﴾ بغير ﴿ هم ﴾ لأن في هذه السورة أتصل (الخطاب) ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بين وحنفة ورزقكم من الطيبات ﴾ : ثم عاد إلى الغيبة فقال : ﴿ أباالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ : فلا بد من تقييده بهم لئلا يلتبس الغيبة بالخطاب والتاء بالياء . وما في العنكبوت اتصل بآيات استمرت على الغيبة فلم يحتج إلى تقييده بالضمير .

قوله : ﴿ ثم إن ربك للدين هاجروا من بعد ما أفتوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها

لغفور رحيم ﴿ : كرر إن ، وكذلك في الآية الأخرى ﴿ ثم إن ربك ﴾ لأن الكلام لما طال بصلته أعاد إن واسمها وثم ، وذكر الخير . ومثله ﴿ أيعدكم أنكم إذا مئتم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ﴾ (١) أعاد (أن) لما طال الكلام .

قوله : ﴿ ولائك في ضيق مما ﴾ : وفي التعليل : ﴿ ولا تكن ﴾ بإثبات النون . هذه الكلمة كثر دورها في الكلام فحذف النون فيها تخفيفا من غير قياس بل تشبهاً بحروف العلة .

ويأتي ذلك في القرآن في بضعة عشر موضعاً تسعة منها بالباء ، وثمانية بالياء ، وموضعان بالنون ، وموضع بالهمزة .

وخصت هذه السورة بالحذف دون التعليل موافقة لما قبلها وهو قوله : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ والثاني أن هذه الآية نزلت تسلياً للنبي (ص) حين قتل حمزة ومثّل به فقال عليه السلام : لأفعلن بهم ولأصنعن ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ : فبالغ في الحذف ليكون ذلك مبالغة في التسلي . وجاء في التعليل على القياس ، ولأن الحزن هنا دون الحزن هناك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَاللَّعْنَةُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلِغِيهِ إِلَّا يَشْقَىٰ الْإِنْسَانُ إِنْ رَبُّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

المفردات : ﴿ أن أنذروا ﴾ : الإنذار التحذير مما يخاف منه ، ﴿ دفاء ﴾ : الشيء الذي يدفك ، ﴿ جمال ﴾ : المراد هنا جمال الصورة وتركيب الخلقة ، ﴿ تريحون ﴾ : الرواح رجوعها بالعشى من المرعى . ﴿ تسرحون ﴾ : السراح ذهابها بالغداة إلى المرعى ، ﴿ أثقالكم ﴾ : أحمالكم .

﴿ بشق الأنفس ﴾ : بمشقتها وغاية جهدها ، ﴿ جائر ﴾ : أى مائل إلى الحق وزائغ . ﴿ الأنعام ﴾ : الإبل والبقر والغنم وهى الثمانية المذكورة فى سورة الأنعام .

إذا أيقن العبد بربه وعرف حقه من الوجدانية الخالصة استقرت نفسه وثبتت تجاه التيارات وعواصفها بكل بروقها وعودها ورياحها ورمالها ، ومن ثم فإن القرآن الكريم يفتح مدارسه المباركة ليوجه إلى القلوب أضواء الوجدانية ودلائل القدرة حتى يبنى النفوس بناء سليماً ويشيدها على تقوى من الله ورضوان وسوف نعرض الآن لهذه المدارس فى سورة النحل لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على وحدانية الله وقدرته .

ففى سورة النحل نطقت الأدلة بوحدانية الله وقدرته فى شتى المجالات الكونية والآفاقية والأفسنية ، شواخ راسيات ورواسى ثابتات ، لا تحركها العواصف ولا تؤثر فيها الرياح القواصف ، اسمع إلى القرآن الكريم وهو يبدأ هذه السورة بهذا الإنذار الذى يدعو كل عبد للاستعداد إلى لقاء الله ، فلقاء الله حق واقع ولتوكيد وقوعه : عبر عنه بلفظ الماضى كأنه قد وقع لأن الله لا يخلف وعده : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ :

ثم يذكر بعد هذه الآية طريق الوحي الذى تنزل به الملائكة ، وأنه كالروح يحى الموت وينزل غضاً ندياً يتقاطر نوراً ورحمة ، ليعلم البشرية جمعاء أنه لا معبود بحق إلا الله .

فيقول سبحانه : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ :

ولقد صدقت ياسيدى يا رسول الله حين أعلنت قولك : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله » (١) .

وبعد ذلك تأخذ السورة الكريمة طريقها فى ذكر حشد من الأدلة المتنوعة والناطقة بالوجدانية والقدرة .

فيقول سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾ : ففى هذه الآية المباركة يذكر أن العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه : مخلوق بالحق ، لاهوا ، ولا باطلا ، ولا عبثاً ، ولا لعباً ، وإنما بالحق قامت السموات والأرض .

﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ (٢) .

وتعالى الله وجل جناب الحق أن يكون شريك يناقشه الحساب ، فهو الواحد العادل الحكيم المزيد .

وبعد ذكر العالمين : العلوى والسفلى ، ينتقل إلى خلق الانسان فيقول سبحانه : ﴿ خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ :

من نطفة فإذا هو خصيم مبين :

(١) أخرجه الإمام مالك فى القرآن : ٣٢ . وفى الحج : ٢٤٦ .

(٢) الآية ١٧ من سورة المؤمنون .

فالانسان سر الله في أرضه ، ومعجزته التي حارت الأفكار فيها ، ولذا يقول أحد الحكماء عن الانسان .

دواؤك فيك وما تبصر ودأوك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضجر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر !

﴿ فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق ﴾^(٣) . فماذا كان من الانسان بعد ذلك ؟ .

قف يا أخى وقفة تدبر وإعمال فكر في هذا النص المبين : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ : يقول علماء اللغة : إن « إذا » حرف يفيد المفاجأة ، فهو بذلك يدل على أن خروج الانسان عن واجبه نحو الله ! يعتبر أمراً غير مألوف ، فما كان ينبغي من الذى خلق من نطفة مهينة أن يفاجيء بالخصومة المينة .. والخصومة لمن ؟ لخالقه ورازقه ومنشئه !

يامدعى الكبر إعجابا بصورته انظر خلاك ، فإن النتن تشرب
لو فكر الناس ماذا فى بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا أقصر ، فإنك مأكول ومشروب

يقول تقى الدين الحسن البصرى : عجبت لابن آدم ! يتكبر على الارض ، وهى التى تناديه بلسان حالها : يا ابن آدم : لا تتكبر على ظهري لأننى غدا سأضمك فى بطنى ! كيف يتكبر ابن آدم وهو الذى أوله نطفة مدرة ، وآخره جيفة قدرة ، وهو ما بين ذلك يحمل فى بطنه العذرة ؟ تؤذيه بقه وتنثه عرقه ، وتميته شرقة؟ كيف تعلن الخصومة على الله يا ابن آدم وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين : مرة وأنت ماء مهين من أريك ، وأخرى وأنت طفل من رحم أمك ؟ عليك أن تذكر هذا ، ولا تنسين أنك حفنة من التراب فى البداية والنهاية .. ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ . ولقد قلت لنفسى ، وأنا بين المقابر ..

هل رأيت الأمن والراحة إلا فى المقابر ؟

فأشارت .. فإذا للودود عبث فى المهاجر

ثم قالت : أيها السائل .. إنى لست أدرى

انظرى : كيف تساوى الكل فى هذا المكان

وتلاشى فى بقايا العبد رب الصولجان

والتقى العاشق والقالى .. فما يفترقان

أبهذا ينتهى الأمر .. ؟ فقالت : لست أدرى !

أيها القبر : تكلم ، وأخبريني يارمام
هل طوى أحلامك الموت ، وهل مات الغرام !
من هو الميت : من عام ، ومن مليون عام ؟
أتمنى أنسى أدرى .. ولكن لست أدرى !

عالم الحيوان

وتنتقل بنا الأدلة من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان المسخر له بإذن الله ، فيقول جل شأنه :
﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين
تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل
والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ :

هذه أنواع من المخلوقات : اشتملت على فوائد عديدة ، لها جليل الأثر في حياة الانسان ، حتى أن
القرآن الكريم لكثرة ما فيها من فوائد - أشار إلى بعضها : ففيها دفاء في أصوافها وأوبارها وأشعارها ،
وفيها اللحوم التي تؤكل ، وفيها الركوب على ظهورها وحمل الأثقال التي لا طاقة لنا بحملها ، وفيها الفوائد
المعنوية وهو ذلك الجمال في رواحها وسروحها ، وفيها الزينة إذا وقعت العين على رؤيتها ، واستمعت
الأذن إلى أصواتها من رغاء وثغاء .. وغير ذلك .

ولما كانت فوائد هالاحصى ولا تستقصى ، فقد أجمالها القرآن في القرآن ﴿ منافع ﴾ : فلك بعد
ذلك أن تقول في هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد ، مما يطول شرحه ، ويكثر ذكره سبحانه
رني :

عجز اللسان عن الثناء فإنه تتصاغر الأفكار دون مداه
من كان يعرف أنك الحق الذي بهر العقول ، فحسبه وكفاه

قوله تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف
رحيم ﴾ :

أي^(١) وهي أيضاً تحمل أمتعتكم وأحمالكم من بلد إلى آخر لم تكونوا بالفيه بدونها إلا بكلفة ومشقة
وجهد شديد ونحو الآية قوله : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة
ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾^(٢) .

وقوله: ﴿الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ (١).

﴿إن ربكم لرهوف رحيم﴾ : ومن ثم أسع عليكم نعمه الجليلة ، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة ، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم كما قال ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ (٢).

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ : أى وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضاً لتركبوها ، وجعلها لكم زينة تتزينون بها - إلى مالكم فيها من منافع أخرى .

﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ : غير هذه الدواب مما يهدى إليه العلم وتستنبطه العقول كلقطر البرية والبحرية والطائرات التى تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى أخرى ومن قطر إلى قطر - والمطاوذ الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ، ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير فى الركوب والزينة .

وبعد أن فصل سبحانه دلائل وحدانيته أرشد إلى أنه كفى بيان الطريق السوى لمن أرادته فقال : ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ : أى وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصل من سلكه إلى الحق ، بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

ونحو الآية قوله : ﴿وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (٣) ، وقوله : ﴿هذا صراط على مستقيم﴾ (٤).

﴿ومنها جائر﴾ : أى ومن السبل سبيل جائر عن الاستقامة ، معوج زائغ عن الحق ، فالسبيل القاصد هو الإسلام ، والجائر منها هو غيره من الأديان الأخرى ، سماوية كانت أو أرضية .

وخلاصة هذا : أن ثمة طرقاً تُسلك للوصول إلى الله ، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق ، وهى الطريق التى شرعها ورضيها وأمر بها ، وهى طريق الاسلام له والإخبارات إليه وحده كما أرشد إلى ذلك بقوله : ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ (٥).

فما عداها فهو جائر ، وعلى الله بيان ذلك ، ليهدى إليه الناس ويتعدوا عن سواه .

ثم أخبر سبحانه بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيبته فقال : ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ : أى ولو شاء سبحانه لجعلكم كالتل والنمل فى حياتكم الاجتماعية ، أو جعلكم كالملائكة مفطورين على العبادة

(١) الآيتان ٧٩ ، ٨٠ من سورة غافر . (٢) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام . (٣) الآية ٣٠ - ٣٢ من سورة الروم

(٤) الآية ٤١ من سورة الحجر . (٥) الآية ٧٢ من سورة يس .

وتقوى الله ، فلا تتجه نفوسكم إلى المعصية ، ولا تسعى إلى الشر ، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم وتسعون إليها بعد بحثها وفحصها من سائر وجوهها ثم ترجحون منها ما تميل إليه نفوسكم ، وما ترون فيه الفائدة لكم كما قال عز من قائل : ﴿ وهديناه النجدين ﴾^(١) طريقى الخير والشر - إما شاكراً وإما كافوراً .

عالم النبات

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء ، وهو العلو مما لهم فيه ومتاع لهم ولأنعامهم فقال : ﴿ لكم منه شراب ﴾ : أى جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه ولم يجعله ملحا أجاجا ﴿ ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ : أى وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم .

وقوله : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ : أى يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ : أى دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى : ﴿ آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إلاه مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ .

عالم الفلك وغيره

وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَا كُلُّوْا مِنْهُ لِحِمَا طَرِيًّا وَتَسَخَّرُ جُؤَامُهُ حَلِيَّةٌ تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

(١) الآية ١٠ من سورة البلد .

المفردات : ﴿ ذراً ﴾ : خلق . ﴿ ألوانه ﴾ : أى أصنافه . ﴿ مواخر ﴾ واحدها ماخرة : أى جارية من مخر الماء الأرض أى شقها . ﴿ والمئيد ﴾ : الحركة والاضطراب يميناً وشمالاً ، ﴿ وعلامات ﴾ : أى معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه أنه منزه عن الشريك والولد ، وأنه لا إله إلا هو وأمر بتقواه وإخلاص العبادة له — ذكر هنا أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام بأسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم — ونبه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف في صرف المشركين عما هم عليه من الشرك .

وكلما بصرهم بطائفة مما يرون ويشاهدون نكسهم على ما يقولون ويفعلون وبين لهم كفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية ثم نثنى بذكر أحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان ، ثم رتب بذكر أحوال النبات ، ثم اختتم بذكر أحوال العناصر الأربعة .

وهكذا تنتقل بنا الأدلة إلى عالم الفلك فيقول جل شأنه ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر * والنجوم مسخرات بأمره * إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ :

وفى لفظ ﴿ التسخير ﴾ ما يدل على منتهى التذليل والتطويع ، ودون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله .

وفى قوله تعالى : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ : إشارة عجيبة ، فإنها جملة إسمية مكونة من مبتدأ وخبر ، وإن مجيئها بهذه الصيغة للدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والإبداع .

فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الفخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق بها كلماته وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟

إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، ولم يصل العلم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ، ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فإن العلم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدراك وأكثر مما يتخيله العقل .

ففى كل مرة يصل العلم عن طريق أجهزة أكثر -- رأشد حساسية وأبعد رصداً إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة . وما زال العلم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد ويحدثنا عن عدد النجوم حجة الفلك العالمى السير (جيمس جينز) فى كتابه (الكون الغامض) فيقول : (ربما كان

مجموع عدد النجوم التي في الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التي تغطي شواطئ البحار في العالم كله .

ويقول كذلك في كتابه (النجوم ومسالكها) : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعاف أو خمسة أمثاله . »

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التي في هذه الكتب عدد مساو تقريباً لعدد نجوم السماء ، وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة في الدقيقة مدة ثمانى ساعات في كل يوم فلا بد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة الف وخمسمائة نجم في الدقيقة لا استغرقتنا في ذلك سبعمائة سنة .

أما الأرض التي نعيش عليها ، فهي أقل من نقطة على حرف في مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين في أى كتاب من هذه الكتب في هذه المكتبة . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم - وهى شمس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التي يقيسها الانسان بأجهزته - فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التي تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها في الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التي تتكون من ٣٦٥ يوماً ، في كل يوم ٢٤ ساعة ، وفي كل ساعة ٦٠ دقيقة . وفي الدقيقة ٦٠ ثانية - لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل .

وقد وجد أن السدم التي ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة هى أنها تبعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التي بينها وبين الأرض ، وأن آخر ما رصد من السدم : وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل في الثانية ، فمتى بدأ في حركته ؟ متى يقف ؟ وإلى متى ينتهى ؟ وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوءه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية ، فعلى أى بعد يقع ؟ وأين أصبح الآن ؟

وتعتبر هذه الأرقام : الوحدات في بداية الكون .. فقد أظهرت بحوث العلماء أن هناك من السدم ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين إشعاعها وأمر هذا الوجود ليس عجباً في عدد النجوم والكواكب والمسافات التي بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذي ظل العلماء في عجب وحيرة منه هو

أمر إشراق النجوم . إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم ، والتي يرجح العلماء أنها تصل عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التي نعرفها ؟ ولكن كيف لا نتمد ، حتى لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة ، بل كل شهر حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة ، لكان يكفى ملايين السنين - التي مرت منذ القدم - أن تصبح النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت : ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك .

فقل إن السبب هو وجود عناصر مشعة في النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيراً ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ، ثم بالانفجار الايدروجينى في تبرير حرارة الشمس وعدم تغيرها ، وما زال العلماء في أبحاثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة ، وهو كيف لا تنفى كتلة النجم ؟ إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة .
سبحانك ربى ! يا من قلت : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾^(١) .

يا من يحار الفهم في قدرتك وتطلب النفس حى طاعتك

تخفى عن الناس سنا طلعتك وكل ما في الكون من صنعك

يا مبدع الكائنات أيا من كل فعلك حكمة بالغة أيا من قلت ، وقولك الحق : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار * وكل في فلك يسبحون ﴾^(٢) .

ويا من قلت : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه * إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ :
وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم إلى ما احتوته الأرض من نبات ومعادن وكنوز لا يعلم كنهها إلا من يقول : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾^(٤) .

ولقد جاء الأسلوب في هذه الآية الكريمة بلفظ (ما) الذى يدل على العموم والشمول ، للإشارة إلى ما في الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل ، وكل هذا ملك لله تبارك وتعالى .
سبحانك ربى :

يا من تفرد بالبهاء وبالسناء فى عزه ، وله البقاء السرمد

(٣) الآية ١٢ من سورة فصلت .

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٦ من سورة طه .

(٢) الآيات ٣٧ - ٤٠ من سورة يس .

يا من له وجب الكمال لذاته
ما فى الوجود سواك رب يعبد
يا من له عنت الوجوه بأسرها
أنت الإله الواحد الفرد الذى
فأنت ترفع من تشاء وتسعد
كلا ، ولا مولى سواك فيقصد
ذلا ، وكل الكائنات توحد
كل القلوب له تفر وتشهد

سبحانك يا من قلت ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ (١) .
ويا من قلت : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شققاً * فأنبثنا فيها حبا * وعنبا وقضباً * وزيتونا ونخلًا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (٢) .
لقد صدقت يا سيدى يا رسول الله وأنت الصادق الأمين عندما تحث البشرية أن تضرب فى مناكب الأرض تطلب الرزق فقلت (التمسوا الرزق فى خبايا الأرض) .

ولكن كان علماء الاقتصاد قد أفاضوا الكلام عن الإنتاج والاستهلاك : فإن القرآن الكريم أشار إليهما فى آية كريمة حيث قال : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ (٣) .
فمصدر الإنتاج قوله جل شأنه ﴿ الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا ﴾ ، ومبدأ الاستهلاك تشير إليه الآية فى هذه العبارة ﴿ فمنه يأكلون ﴾ .

تأمل فى نبات الأرض وانظر
عيون من لجين شاخصات
على قضب الزبرجد شاهدات
إلى آثار ما صنع المليك
بأبصار هى الذهب السبيك
بأن الله ليس له شريك

ثم ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى عالم البحار .. ذلك الخلق العظيم الذى جاء فى وصفه قول القائل « هو خلق عظيم ! الداخلى فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، إذا هاج هز القلوب وأفرغ النفوس » .

ويبين القرآن الكريم حال الناس فى البحر فيقول سبحانه : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم برح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ (٤) .
هذا الخلق العظيم مسخر ومذل ومنقاد ومُدعن لخالقه الذى سخره — يقول جل شأنه : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . سبحانك ربى :

(١) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة طه .

(٢) الآية ٣٣ من سورة يس .

(٣) الآية ٢٢ من سورة يونس .

(٤) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس .

لما علمت بأن قلبى فارغ من سواك ملاته بهواك
وملأت كلى منك حتى لم أدع منى مكانا خاليا لسواك

فتأمل معى هذه العظمة الإلهية التى دبرت الأمور بإحكام ، ونظمت الكون بإتقان ، كيف استطاع الحيوان ، أن يعيش فى الماء وكيف تغذى على النباتات ، وماذا يقول العلم فى شرح العناية الإلهية فى عالم البحار ؟

إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية أن جميع المواد إذا ما تجمدت زادت كثافتها ، فيما عدا الماء فإن المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة ، إذ تقل كثافتها عن التجميد .. لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح ، مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى ، وقد لا يتصور الإنسان لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى - كيف يكون الأمر ؟ فعندما يفوص الجليد فى البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته ، كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى ، فكيف تعيش الأسماك ونحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

وهكذا تختلف القوانين العلمية ، وتتناقض الحقائق المرئية ، وليس من هدف لإقيام الحياة وتدير أمورها وتيسير سبلها .

أليس فى ذلك الرد - أبلغ الرد - على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

فواعجبا : كيف يعصى الاله بل كيف يجحده الجاحد ؟
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ماذا يقول المكابرون فى هذه الآية الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبّر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ مع الله القائل ﴿ خلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾^(١) والقائل ﴿ وكل شىء عنده بمقداره عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾^(٢) والقائل ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾^(٣) .

هل تستطيع الطبيعة الصماء ، وهل تقدر الصدفة العمياء أن توجد وأن تدبر ، وأن تحكم الخلق أو تنظم ؟ ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ يا من قلت وقولك الحق ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾^(٤) .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾^(٥) .

(١) الآيات ١٠٠ ، ١٠١ من سورة الكهف .

(٢) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الرعد .

(٣) الآية ٢ من سورة القمر .

(٤) الآية ٢ من سورة الفرقان .

(٥) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الرعد .

(٦) الآية ٤٩ من سورة القمر .

إن الوجود كله صفحة متقنة الإبداع ، تقرر وتشهد بالحق أن لها خالقا مبدعا حكيما مريدا : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (١) .

وبعد أن أخبر القرآن الكريم عن عالم البحار ، انتقل بنا بعد ذلك إلى عالم الجبال ، وما في الأرض من أنهار وسبل وعلامات للاهتداء في متاهات الرحاب الواسعة ، قال جل شأنه ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ : إنها عمارة الكون تنطق بالقول السديد ، والبرهان الرشيد .

سبحان من أحيا قلوب عباده بلوائح من فيص نور هداه
فالعارفون مشاهدون لفضله مستأنسون بذكرهم إياه

من الذى أودع هذه العلامات للإرشاد في الصحارى الشاسعة والوهاد المترامية ؟ إنه الله جل في علاه فقد جعل منها علامات أى دلائل يهتدى بها السارى من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك حتى إذا ضل الطريق كانت عوناً له ، وهدته إلى السبيل السوى في البر والبحر .

﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ : بالليل في البرارى أو في البحار وفي الآية إيحاء إلى أن مراعاة النجوم أصل في معرفة الأوقات والطرق والقبلة ويحسن أن نتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة .
قال قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء : لتكون زينة للسماء ومعالم للطرق ، رجوماً للشياطين ، فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به .

لا إله إلا الله

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَاجِرْمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ المراد بمن يخلق ﴾ : الله سبحانه وتعالى . ﴿ ومن لا يخلق ﴾ : الملائكة وعيسى والأصنام ، ﴿ وما يشعرون ﴾ : أى لا يعلمون ، ﴿ وأيَّان ﴾ : كمتى تدلان على الزمن ، ﴿ لاجرم ﴾ : أى حقاً .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام وكان في ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم ووجوه الإحسان . قفى على ذلك بتبكي الكفار وإبطال شركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينهما ثم أردف ذلك بيان أن لهذا الخالق نعماً لا تحصى على عباده وأنهم مهما بالغوا في الشكر واجتهدوا في العبادة فليسوا ببالغين شيئاً مما يجب عليهم نحوه ، ولكنه يستر عليهم ما فرط من كفرانهم ويرحمهم بفيض النعم عليهم مع عدم استحقاقهم لها ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية وهي علم السر والنجوى والخلق وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك فهي مخلوقة لاخالقة ولا شعور لها بحشر ولا نشر .

ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لا شريك له . ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الاشرار وهي تحجر القلوب وإنكار التوحيد فهي لا ترهب في الثواب ولا ترهب العقاب وتستكبر عن عبادة الواحد الديان . لاجرم بقيت مصرة على ما كانت عليه من الجهل والضلال .

بعد سؤق الأدلة ووضوحها ونظمها في هذا المسلك الرائع والاتقان البديع يسوق القرآن هذا السؤال لكل عاقل بصير وليس المقصود بالسؤال استفهاماً . فإن الاستفهام محال في حق الله إذ هو طلب الفهم وهو يفيد الجهل بالشيء المستفهم عنه وجل جناب الحق أن يغرب عنه شيء في الوجود كله . إنما المقصود بالاستفهام هنا في قوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ : هو الإنكار الذى يفيد النفي : أى ليس من يخلق كمن لا يخلق فهذا مجرد التذكرة وعلى كل عاقل أن يفهم ذلك ويتدبره فإن ذلك من الأمور البديهية ومن الشئون الواضحة الجليلة كالشمس في ضحاها وهي تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية .

جلت حكمتك يا حكيم أنت الخالق المبدع المصور لا شريك لك في ملكك .
يا حبيب القلوب هب لى رضاك وارحم اليوم مذنباً قد أتاك
يا إلهى وخالقى ومرادى قد أبى القلب أن يحب سواك

أخى القارىء الكريم :

هكذا طفت بعقلك وفكرك ووجدانك وقلبك في هذه الرياض الباسمة : رياض الكتاب العزيز . انتقلت من عالم السموات والأرض إلى عالم الإنسان ومن عالم الإنسان إلى عالم الحيوان ثم إلى عالم النبات ثم إلى عالم الفلك ومنه إلى ما فى الأرض من مكنون الخزائن ثم إلى عالم البحار ومنها إلى عالم الجبال والأنهار ووسائل الإرشاد فى المتاهات .

نعم الله على خلقه

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات قال القرآن الكريم بعد ذلك ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ : إن الذى أوجد هذه الكائنات العظمى لا بد أن يكون متصفاً بالعلم الشامل الكامل ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جل شأنه ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ : ولقد بلغ من جهل الكافرين أن قال بعضهم لبعض . من أراد أن يتكلم فى شأن محمد ﷺ فليكن ذلك سراً حتى لا يسمع إله محمد ما نقول فيخبره به فماذا كان الموقف .

لقد هبط سفير الأنبياء جبريل عليه السلام بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (١) .

الله يدرى كل ما تضرر ويعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر
وحيث قد ثبت أن الله هو الخالق وحده العالم بكل شيء فإن غير الله لا يخلق لأنه لا يملك الإيجاد من العدم . ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيا ن يعثون ﴾ :

الكون وقدرة الله

الكون قسمان : كون زمانى وكون مكافى .

فالكون الزمانى : هو الدنيا والآخرة .

والكون المكافى : هو السموات والأرض .

وإذا كان الله تعالى قد تحدى العالم أن يأتي بسورة من مثل القرآن الكريم فقد تحداهم بالكون المكافى أن يخلقوا ذباباً حيث يقول سبحانه ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (٢) .

العلم الحديث ووحداية الله تعالى :

يا من يرى مد البعوض جناحه فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها فى قاع بحر زاخر متجندل

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الآيات للإمام الزمخشري وهو يناجى ربه فيقول : سبحان الله ما هى تلك البعوضة التى لها عروق ونحر ومخ وعظام إلى أن قرأت هذا البحث العلمى الذى يقوم به البروفيسير (أردين ليا) الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية . فاسمع إليه يقول الخير بالحرف الواحد .

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك . (٢) الآية ٧٣ من سورة الحج .

يقوم الدكتور (أروين ليا) من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على نخ البعوض تحت الميكروسكوب مستخدماً أدوات جراحية دقيقة مثل التي يستعملها صانعو المجوهرات وذلك لمساعدة العلماء في السيطرة على أخطاء هذه الحشرات ولا تستغرق الجراحة التي يقوم بها الدكتور (ليا) أكثر من ٥ دقائق وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع المرضى من البعوض : الطيران .

ويقوم الدكتور (ليا) أستاذ علم الحشرات وطبائعيها بدراسة نظام الهرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذي ينتشر في المستنقعات وبمعرفة الطريقة التي تعمل بها الغدد الصماء في البعوض يمكن أن تكون عاملاً هاماً في مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها وأثناء العملية .

يقوم الدكتور (ليا) بإزالة الخلايا التي تعرف باسم خلايا إفرازات الأعصاب من نخ البعوضة وكذلك بعض الغدد من الرقبة .

وقد وجد الدكتور (ليا) أن البعوضة لا يمكنها بعد ذلك وضع البيضة فإذا كان هذا شأن البعوضة التي ضرب القرآن بها مثلاً فقال : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ﴾^(١) .

فما بالك بهذه الخلية وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ووقفت حيالها (واجمة) عبقریات العابرة والمفكرين .

وهكذا أخذت الأدلة تتجلى في تودة وثبات كأنها الجبال الشم والرواسي الشاخات إلى أن وصلت إلى حقيقة الحقائق وسر الأسرار ألا وهي قضية التوحيد فقال سبحانه بعد ذلك : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ : فهذه القضية مركز الدائرة الذي تسبح حوله الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة إنها قضية لا إله إلا الله . فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدي لا إله إلا الله أنهى بها عمري لا إله إلا الله يغفر بها ذنبي لا إله إلا الله أدخل بها قبري لا إله إلا الله ألقى بها ربي :

وقد تفانوا في سر معناه

بقولهم : لا إله إلا هو

قولوا معي : لا إله إلا هو

بفضله : لا إله إلا هو

بذكره : لا إله إلا هو

سبحان من لا إله إلا هو

تسليمه : لا إله إلا هو

تسبيحه : لا إله إلا هو

الكل في بحر حبه اشتاقوا

وصححو العقيد مخلصين له

يا معشر الذاكرين كلكم

وراقبوا من يعمكم كرمأ

فالكون قد فاح بشره عبقا

والعرش تسيحنه له أبدا

وكل ما في السماء من فلك

وكل ما في الجبال من عظم

وكل ما فى الرياض من شجر	تسيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى البحار من خلق	تسيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الوجود من بشر	تسيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الزمان من عجب	أعجبه : لا إله إلا هو
وكل شىء تراه من حسن	أحسنه : لا إله إلا هو
وكل شىء يلوح من صور	فزينته لا إله إلا هو
وكل أهل العلوم قد علموا	بأنه لا إله إلا هو
وكل أهل العقول قد فهموا	بأنه لا إله إلا هو
والإنس والجن كلهم شهدوا	بأنه لا إله إلا هو
والرعد والبرق إذ يسبحه	بقوله لا إله إلا هو
وكل من ضل عن طريق هدى	دليله لا إله إلا هو
وكل من يشتكى أذى سقم	شفاؤه لا إله إلا هو
ومن أتاه بالذل مفتقرا	غناؤه لا إله إلا هو
ومن أتى بائساً ومفكراً	فجيره لا إله إلا هو
يا غارقاً فى بحار غفلته	انهض وقل لا إله إلا هو
يا قوم لا تغفلوا عن ذكره	بلا إله إلا هو
كيف تنام العيون عن ملك	سبحانه لا إله إلا هو
هو الإله العظيم قدرته	سبحانه لا إله إلا هو
يا فوز من مات وهو معتقد	يشهد أن لا إله إلا هو
سبحانه ما أعم رحمته	بمذنب تاب من خطاياها

قوله تعالى : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ : ثم أقرأ تعقيب الكتاب العزيز عليها حيث يقول جل شأنه ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لاجرم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم تعجبهم من ذلك : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ (١) .

(١) الآية ٥ من سورة ص .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ : (١) .

وقوله : ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ : أى عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٢) .

ولهذا قال هنا : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : أى حقاً ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ ﴾ : أى وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن الأدلة على وحدانية الله واضحة لا غموض فيها جلية لا غبار عليها وأن الذين يقفون منها موقف الإنكار أو التشكك إنما ذلك راجع لمرض في قلوبهم فقلوبهم منكورة جاحدة مظلمة عابسة :

ماضر شمس الضحى في الأفق ساطعة ألا يرى نورها من ليس ذا بصر ؟
وقد قيل :

وماضر الورد وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها
وقد قيل أيضاً :

مايضر البحر أمسى زائحاً إن رمى فيه غلام بحجر
فاللهم أزل عن القلوب حجب الغفلة وبصرها بأمر دينها ودنياها .

وإن من أمراض هذه القلوب المنكرة أنها تجحد حقائق الأشياء دون أن تبحث وتفكر وتمحص وتتدبر قال سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : بكل هذه السهولة وبمتهى التبجح : تنكر الحقائق .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
ومن يك ذا فم مَرَّ مريض يجد مرأً به الماء الزلالا

من مواقف الكافرين

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدَّمَكِرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَلَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى

(٢) الآية ٦٠ من سورة غافر .

(١) الآية ٤٥ من سورة الزمر .

الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ
 مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
 فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿الأساطير﴾ : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وهى الترهات والأباطيل ،
 ﴿الأوزار﴾ : الآثام واحدها وزر ، ﴿ساء مايزرون﴾ : أى بسس شيئاً يعملونه ، ﴿المكر﴾ :
 صرف غيرك عما يريد به بحيلة ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ، ﴿فأتى الله بنيانهم من
 القواعد﴾ : أى أهلكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر ، ﴿القواعد﴾ : الدعائم والعمد واحدها
 قاعدة ، ﴿خر﴾ : سقط ، ﴿يخزيهم﴾ : يذلهم ويهينهم ، ﴿وتشاقون﴾ : أى تخاصمون وتنازعون
 الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شق وجانب غير شق الآخر ، ﴿والذين
 أوتوا العلم﴾ : هم الأنبياء ، ﴿والسلم﴾ : الاستسلام ، ﴿والخضوع﴾ : بلى بمعنى نعم ،
 ﴿والثوى﴾ : مكان الثواء والإقامة .

المناسبة

بعد أن ذكر دلائل التوحيد ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام أردف ذلك بذكر
 شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها وبين أنهم ليسوا ببدع فى هذه المقالة فقد سبقتهم أم قبلهم
 فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فأهلكهم فى الدنيا وسيجزئهم يوم القيامة بما فعلوا ثم ذكر أنهم حين
 يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ما كنا نعمل من سوء ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا ولا مثوى
 لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثوى هى .

قوله تعالى : ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾ : أى وإذا قيل لهؤلاء
 الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين أى شئ أنزله ربكم ؟ قالوا لم ينزل شيئاً إنما الذى يتلى علينا
 أساطير الأولين أى هو مأخوذ من كتب المتقدمين . ونحو الآية قوله : حكاية عنهم ﴿وقالوا أساطير
 الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾^(١) .

وكانوا يفترون على الرسول ﷺ أقوالاً مختلفة فتارة يقولون إنه ساحر، وأخرى إنه شاعر أو كاهن
 وثالثة إنه مجنون . ثم قر قرارهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي كما حكى عنه الكتاب
 الكريم ﴿إنه فكر وقدره فقتل كيف قدره ثم قتل كيف قدره ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر *
 فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾^(٢) .

(٢) الآيات ١٨ - ٢٤ من سورة المدثر .

(١) الآية ٥ من سورة الفرقان .

أى ينقل ويحكى فنفروا معتقدين صحة قوله وصدق رأيه قبهم الله وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سأهم وفود الحجيج ويقولون هذه المقالة . ثم بين عاقبة أمرهم فقال : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الدين يضلونهم بغير علم ﴾ : أى وإنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك لتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام الذين يتبعونهم ويوافقونهم ، أى يصير عليهم خطؤ ضلالهم فى أنفسهم وخطيئة إغوائهم وإضلالهم لغيرهم واقتدائهم بهم كما جاء فى الحديث (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)^(١) .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾^(٢) .

والمراد من قوله ﴿ كاملة ﴾ : أنه لا ينقص فيها شئ ولا يكفر بنحو نكبة تصيبهم فى الدنيا ولا طاعة مقبولة تكفر بعض تلك الأوزار كما هو حال المؤمنين .

وفائدة قوله ﴿ بغير علم ﴾ : بيان أنهم يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال وأنهم على الباطل وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدهم لا يروج على ذى لب وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء وزيادة تعبير وذم لهم إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لإضلالهم .

وقصارى القول أن هؤلاء قد نسوا أنفسهم واختاروا لها الكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين فكانوا السبب فيما احتملوه من الأوزار والأصبار كما كانوا واسطة فى تحمل من اتبعوهم هذه الأوزار أيضاً والله تعالى لم يظلمهم فيما جازاهم به بل هم الذين قسطوا وجاروا على أنفسهم فاستحقوا هذا الجزاء ثم هددهم وتوعدهم فقال : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ : أى بئس شيئاً يرتكبونه من الإثم والذنب ما يفعلون .

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدة إليهم ووبال ذلك لاحق بهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذى أصابهم من العذاب ما أصابهم بتكذيبهم لرسولهم فقال : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

أى إن حال من قبلهم وقد دبوا الحيل ونصبوا الحبائل ليكروا بها رسل الله فأبطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فضعضت أساطينه وسقط عليهم السقف فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه - فما نصبوه من الأساطين وظنوه سبب القوة والتحصين فى البنيان صار سبب الهلاك كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالأعلى عليهم ونحو الآية قولهم فى المثل : من خفر لأخيه خُباً وقع فيه منكباً .

(١) أخرجه مسلم فى العلم : ١٦ ، وفى الذكر : ١ . وأبو داود فى السنة : ٦ . والترمذى فى العلم : ١٥ ، وفى نواب القرآن : ١٤ .

وابن ماجه فى المقدمة : ١٤ . والدارمى فى فضائل القرآن : ١ .

(٢) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .

وختلاصة ذلك :

أن الله أحبب أعمالهم وجعلها وبالآ عليهم ونقمة لهم وبعد أن بين سبحانه ما حل بأصحاب المكر فى الدنيا من العذاب والهلاك بين حالهم فى الآخرة فقال : ﴿ ثم يوم القيامة يجزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ : أى ثم إن ربك يوم القيامة يجزيهم بعذاب أليم ويقول لهم حين ورودهم عليه على سبيل الاستهزاء والسخرية . أين الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى وهلا تحضرونهم اليوم ليدفعوا عنكم ما يحل بكم من العذاب فقد كنتم تعبدونهم فى الدنيا وتتولونهم والولى ينصر وليه .

والمراد من المشاققة منهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وزعمهم أنهم شركاء حقا حين بينوا لهم ذلك والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيك والاحتقار لشأنهم إذ كانوا يقولون : إن صح ماتدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا والخلاصة - أنه لا شركاء ولا أماكن لهم .

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين فى شأنهم يوم القيامة : ﴿ قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ : أى قال الذين أوتوا العلم بدلائل التوحيد وهم الأنبياء صلوات الله عليهم والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا إلى دينهم فيجادلون وينكرون عليهم : إن الذل والهوان والعذاب يوم الفصل على الكافرين بالله وآياته ورسله ومرادهم بهذه المقالة الشماتة وزيادة الإهانة للكافرين .

ثم بين أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالمو أنفسهم فقال : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ : أى الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم وهم ظالمو أنفسهم ومعرضوها للعذاب المخلد بكفرهم وأى ظلم للنفس أشد من الكفر .

ثم ذكر حالهم حينئذ من الخضوع والمذلة فقال : ﴿ فآلقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ﴾ : أى فاستسلموا وانقادوا حين عاينوا العذاب قائلين : ما كنا نشرك بربنا أحداً وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (١) .

ثم كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال : ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ : أى بلى كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح الآثام والله عليم بذلك فلا فائدة لكم فى الإنكار والله مجازيكم بأفعالكم .

ثم بين ما يترتب على قبيح أفعالهم فقال : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبس ثوى المتكبرين ﴾ .

أى فادخلوا طبقات جهنم وذوقوا ألواناً من العذاب بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم واجتراحكم عظيم الموبقات والمعاصى خالدين فيها أبداً وبئس المقيل والمقام دار الذل والهوان لمن كان متكبراً عن اتباع الرسل والاهتداء بالآيات التى أنزلت عليهم وما أظفها من دار وصفها ربنا بقوله ﴿ لا يقضى

عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴿ : تلك عاقبة هؤلاء في الدنيا والآخرة .
أما في الآخرة : فكما قال مولانا : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الدين
يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرعون ﴾ .

وأما عاقبتهم في الدنيا فإنها كعاقبة الذين من قبلهم : تدمير وخسف قال سبحانه ﴿ قد مكر الذين
من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث
لا يشعرون ﴾ .

هذه عاقبة التكذيب والخيانة والكفر والجحود ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها
رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد
جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون * فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واشكروا
نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (١) .

وموقف هؤلاء المنكرين في الآخرة أيضاً : محزى وتأنيب قال جل شأنه : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم
ويقول أين شركائ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ : عندئذ لا يستطيعون جواباً ولا تفسيراً .

فمن الذين يقولون كلمة الحق الفاصلة : إنهم أهل العلم قال جل شأنه ﴿ قال الذين أوتوا العلم إن
الحزى اليوم والسوء على الكافرين * الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل
من سوء بل إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ .

وبعد كل هذا فإلى أين ينتهى المطاف وأين المستقر ! قال سبحانه : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم
خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

جزاء المتقين

* وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ آدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

المناسبة

بعد أن بين سبحانه أحوال المكذبين بالله ورسوله الذين ينكرون وحيه ويقولون إن محمداً قد لفق
أساطير الأولين وترهاتهم ونقلها للناس ، وادعى أنها من رب الأرض والسموات وذكر ما سينالهم من

النكال والوبال إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصي أردف ذلك وصف المؤمنين الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ، وذكر ماأعده لهم من الخير والسعادة في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء وفاقا لما أحسنوا من العمل وأتوا به من جميل الصنع .

وبعد هذا المشهد من مشاهد القيامة ، وبعد أن تقرأه بخشية وخشوع : قارن بين أصحاب القلوب المنكرة وبين أهل التقوى .. فأصحاب القلوب المنكرة إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ، وأصحاب التقوى : موقفهم على النقيض من ذلك .

قال تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ .
شтан ثم شتان ، وهيات ثم هيات بين القولين : بين « أساطير الأولين » وبين كلمة ﴿ خيرا ﴾ كما أنه شتان بين العاقبتين .

فعاقة المتكبرين : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ : هذا في الآخرة ، وفي الدنيا : ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد * فخر عليهم السقف من فوقهم * وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

وأما عاقبة المتقين في الدنيا والآخرة ، فكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين ﴾ .

ومن المواقف الطيبة التي يقف عندها العقل عاجبا في هذه السورة أن الله سبحانه شاء - بمنه وفضله - أن يعطى الجزاء للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذكر ذلك في هذه السورة في أربعة مواضع : هذا الموضع السابق أولها .

والموضع الثاني : قوله جل شأنه : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

والموضع الثالث : قوله جل جلاله : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

والموضع الرابع : قوله تعالى في حق الخليل إبراهيم : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

سبحانك اللهم ! أنت وليُّ المتقين ، وناصر المؤمنين .

ثم قارن بعد ذلك يا أخى بين حالتى الوفاة التى يصفها الكتاب العزيز : فيقول في حق المنكرين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم * فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ﴾ .

ويقول في حق المتقين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ .

روى ابن أبي حاتم عن السدي قال : اجتمعت قريش فقالوا إن محمداً رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناساً من أشرفكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده ردوه عنه ، فخرج ناس في كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقوله محمد ، ووصل إليهم قال أحدهم : أنا فلان بن فلان فيعرفه نسبه ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعييد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمَ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : فإن كان الوافد من عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك ، قال : بفس الوافد لقومي ، إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وانظر ما يقول ، وآتى قومي ببيان أمره فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون خيراً . فهؤلاء هم الذين يقول الله تعالى في شأنهم : ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ : قال الراغب : الطيب من الناس من تفرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وهذا إيضاح لقول مجاهد : الطيب من تزكو أقواله وأفعاله .

وقوله تعالى ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ : كلمة مختصرة جامعة لكثير من المعاني ، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أمروا به ، وإجتنبهم كل ما نهوا عنه ، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا ، وبراءتهم من ذمير الرذائل ، وتوجههم إلى حضرة القدس ، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية ، ويتبع ذلك أنه يطيب لهم قبض أرواحهم ، لأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى كأنهم مشاهدوها .

ومن هذه حالة لا يألم بالموت كما قال : ﴿ إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (١) .

أخرج ابن جرير والبيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال : (إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة) .

ماذا ينتظر المعاندون ؟

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ
بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

المفردات : ﴿ ينظرون ﴾ : ينتظرون : ﴿ وأمر ربك ﴾ : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، ﴿ وحق بهم ﴾ : أى أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

المناسبة

بعد أن ذكر طعن المشركين في القرآن بنحو قولهم : إنه أساطير الأولين ، وإنه قول شاعر ، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد ، ثم أتبعه بالثواب لمن صدق به - قفى على ذلك ببيان أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم الملائكة قابضة أرواحهم ، أو يأتيهم عذاب الاستئصال ، فلا يُتقى منهم أحدا ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم ، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا ، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾^(١) .

ماذا ينتظر هؤلاء المعاندون المكابرون في الحق ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به الرسل ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾^(٢) .

إنهم المجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾^(٣) .

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمته ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾^(٤) .

إنهم في غيهم سادرون وفي ريبهم يترددون وفي خوضهم يلعبون إلى أن تأتيهم ملائكة الموت ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ .
وهل ينتظرون إلا أن يأتيهم أمر ربك (أى عذابه) .

﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ .

﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ : أى ليس هؤلاء بدعا ، بل لقد سبقتهم أمم طغت وبغت وكذبت ﴿ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾^(٥) .

(١) الآية ١١ من سورة الرعد . (٢) الآيات ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر . (٣) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت ، (٤) الآيات ٢ ، ٣ من سورة القمر . (٥) الآيات ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يقترن الجزاء بالعمل فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١) .
قال تعالى : ﴿ فَأَصَابِهِمْ سَيِّئَاتِ مَا عَمَلُوا ﴾ : وهكذا يكون الجزاء مبنياً على العمل .
قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

وقال جلّ شأنه : ﴿ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ ﴾ (٢) .

وقال جلّ شأنه : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مَّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ وَعدَ اللَّهُ حَقًّا وَالسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَبِقِينَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا عَمَلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٣) .

لقد أحاط بهؤلاء العذاب جزاء ما استهزئوا بآيات الله ورسله ﴿ وَلَمَنْ سَأَلْتَهُمْ لِمَا نَحْنُ بِمُخْرَجِينَ قُلْ أَفَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٤) .

حجة داحضة

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَآجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿٢٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الطَّاغُوت ﴾ : كل معبود دون الله ، من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال ويقع على الواحد كقوله : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطَّاغُوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ (٥)

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . (٢) الآيات ٣٠ - ٣٥ من سورة الجاثية . (٣) الآية ٦٠ من سورة النساء .

(٤) الآية ٣١ من سورة النجم . (٥) الآية ٦٥ من سورة التوبة .

وعلى الجمع كقوله : ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (١) .
 ﴿حققت﴾ : وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لإصراره على الكفر والعناد .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد ، أو أتاهم عذاب الاستئصال ، كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسول الله - قفى على ذلك ببيان أنهم طعنوا في إرسال الأنبياء جملة وقالوا إنا مجبورون على أعمالنا ، فلا فائدة من إرسالهم ، فلو شاء الله أن تؤمن به ولا نشرك به شيئاً ونحل ما أحله ولا نحرم شيئاً مما حررنا لكان الأمر كما أراد ، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه ، فما يقوله له الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من عند الله .

وقد رد الله عليهم مقالهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذوبون من الأمم السالفة ، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية ، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هادياً يأمر بعبادته ، وينهاهم عن الضلال والشرك ، فمنهم من استجاب لدعوته ، ومنهم من أضله الله على علم ، فحققت عليهم كلمة ربك ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم أمرهم بالضرب في الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أخذوا بذنوبهم ، ثم ذكر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفك شيئاً ، فإن الله لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يختار الضلالة لنفسه ، كما لا يجرد أحداً يدفع عنه بأس الله ونقمته .

قوله تعالى : ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ونحن ولا آباؤنا ولا حرمانا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ .

هذا احتجاج باطل اسند فيه المعاندون كل ما فعلوه من شرك إلى المشيئة العليا كما أسندوا كل ما شرعوه لأنفسهم عندما أحلوا الحرام وحرموا الحلال إلى المشيئة ، وكأنهم يقولون ما كان هناك داع إلى إرسال الرسل فلو شاء الله لنا ألا نعبد من دونه من شيء لما عبدنا ولا حرمانا من دونه من شيء أولاً يعلم هؤلاء أن مشيئة الله تعالى قد بنيت على علم وحكمة ، وأنه تعالى قد تنزه عن الجهل والعبث فهو العليم الحكيم المريد القدير ، اقتضت مشيئته أن يرسل رسلاً وينزل كتباً ويهب العباد عقلاً وهؤلاء الرسل بعثوا مبشرين ومنذرين لألا يكون للناس حجة بعد الرسل قال تعالى ﴿من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ (٢) .

قال جل شأنه : ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾ (٣) .

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٥ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٥٦ من سورة الكهف .

وقال سبحانه ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعداب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾^(١).

وقال تبارك اسمه ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾^(٢).

ليس لأحد حجة على الله بعد إرسال الرسل وليس لأحد حجة على الله تعالى بعد إنزال الكتب ، وليس لأحد على الله تعالى حجة . بعد أن وهبنا العقول ، وبعد أن رفع القلم عن ثلاثة : الخطأ والنسيان وما استكرهنا عليه ، وعن النائم حتى يستيقظ ، والصبي حتى يحتلم ، والمجنون حتى يفيق ، وبعد أن فتح باب التوبة حتى يفرغ العبد أو تطلع الشمس من مغربها ، عندئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، لذا ترى آيات القرآن ناطقة بمنطق العدالة الإلهية قال تعالى ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾^(٣) والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾^(٤) ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره لليسرى ﴾^(٥) . فالذين عبدوا من دون الله شيئاً والذين حرموا وأحلوا ما لم ينزل الله به سلطاناً قد استحبوا العمى على الهدى ، لذا كان الرد من العلى العظيم ، كذلك فعل الذين من قبلهم أى من الأمم التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾^(٦) .

فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾^(٧) ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو عليم بالمهتدين ﴾ ﴿ ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفقتين * وهديناه النجدين ﴾^(٨) ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾^(٩) .

قوله تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

كل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو : قول لا إله إلا الله ، قال تعالى ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾^(١٠) وقال جل شأنه ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(١١) .

(١) الآية ١٣٤ من سورة طه .

(٢) الآية ٣٥ من سورة النحل .

(٣) الآية ٦ - ٩ من سورة الملك .

(٤) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٥) الآية ٣ من سورة الإنسان .

(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٧) الآيات ٨ - ١٠ من سورة البلد .

(٨) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

(٩) الآيات ٧ - ١٠ من سورة الشمس .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علا الجبين الساجد

لقد أمرت الرسل أممها بتوحيد الله واجتناب كل طاغوت والطاغوت كل ما عبد من دون الله سواء كان جنياً أو شيطاناً أو بشراً طغى وبغى وجاوز حدود العبودية قال تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١) .

وقال عز من قائل ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ (٢) .

وقال جل جلاله ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ (٣) .
قال تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ﴾ (٤) .

نعم إن الطريق واضح والحق لائح والمنادى صائح فمنهم من هدى الله فاتبع صراطه المستقيم ومنهم من زل وغوى واتبع ما أسخط الله فهوى فحقت عليه الضلالة قل هؤلاء الضالين ﴿ سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٥) .

إن هؤلاء الضالين الذين حقت عليهم كلمة الضلالة ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ﴾ (٦) فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون .

﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٧) .

﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ (٨) .

﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ (٩) .

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٧٦ من سورة النساء .

(٣) الآية ٦٠ من سورة النساء .

(٤) الآية ١٧ من سورة الزمر .

(٥) الآية ٧٠ من سورة التوبة .

(٦) الآية ٣٧ من سورة النحل .

(٧) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

(٨) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .

(٩) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .

والهوى هو منازع النفس إلى مسالك الشر ، ومن اتبع الهوى فقد هوى .
هؤلاء الضالون ما لهم من ناصرين ينصرونهم من دون الله ، ﴿ مال للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ (١) .

إنكارهم البعث

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرُ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْبِنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا
كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ رُكْنٌ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

المفردات : ﴿ الجهد ﴾ : بفتح الجيم ، ﴿ المشقة ﴾ : وبضمة الطاء ، ﴿ وجهد أيمانهم ﴾ :
أى غاية اجتهادهم فيها ، ﴿ وبلى ﴾ : كلمة جواب كنعم لكنها لاتقع إلا بعد النفى فتثبت ما بعده ،
﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ : أى وعد ذلك وعدا عليه حقاً ، أى ثابتا متحققاً لاشك فيه .

المناسبة

بعد أن ذكر عز اسمه حجتهم وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعاً لأننا مجبورون فيما نفعل ، وأنه
لو شاء الله أن نهتدى لكان دون حاجة إلى ارسال الأنبياء ، ورده عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هى فى تبليغ
ما أمر به وترك ما نهى عنه ، ولا يلزمون أحداً بإيمان ولا كفر ، أردف هذا بشبهة أخرى لهم إذ قالوا إنما
نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب ، ولكن العودة إلى حياة
أخرى غير ممكنة ولا معقولة ذلك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاؤه كل مذهب امتنع أن يعود بعينه
ليحاسب ويعاقب فرد الله عليهم ما قالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعداً حقاً وأنه فعل ذلك ليميز
الخير من الطيب والعاصى من المطيع وأيضاً فإيجاده تعالى للأشياء لا يتوقف على سبق مادة ولا آلة بل يقع
ذلك بمحض قدرته ومشيتته وليس لقدرته دافع ولا مانع .

أخرج ابن جرير عن إبي العالية قال : (كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه
يتقاضاه فكان فيما تكلم به والذى أرجوه بعد الموت أنه لكذا وكذا فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك
تبعث من بعد الموت وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فأنزل الله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ .
وأخرج أيضاً عن ابى هريرة قال : (قال الله : سبى ابن آدم ولم يكن ينبغى له أن يسبى ،
وكذبنى ولم يكن ينبغى له أن يكذبنى ، فأما تكذبيه إياى فقال ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من

يموت ﴿١﴾ . وقلت ﴿٢﴾ بلى وعدا عليه حقا ﴿٣﴾ وأما سبه إياي فقال ﴿٤﴾ إن الله ثالث ثلاثة ﴿٥﴾ وقلت ﴿٦﴾ هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴿٧﴾ .

قوله تعالى ﴿٨﴾ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴿٩﴾ .

أى أنهم اجتهدوا في الحلف ، وأغلظوا في الإيمان أنه لا يقع بعث بعد الموت ، وهذا استبعاد منهم لحصوله من جراء أن الميت يفنى ويعدم ، والبعث إعادة له ، وإعادة المعدوم مستحيلة .

وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم وكذبهم بقوله : ﴿١٠﴾ بلى وعدًا عليه حقا ولكن أكثر الناس

لا يعلمون ﴿١١﴾ .

أى بلى سببته الله بعد مماته ، وقد وعد بذلك وعداً حقاً لا بد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشعون الله وصفات كماله من علم وقدره وحكمته ونحوها لا يعلمون أن وعد الله لا بد من نفاذه ، وأنه باعثنهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء ، ومن قبل هذا جرعوا على مخالفة الرسل ، ووقعوا في الكفر والمعاصي .

ثم ذكر سبحانه وتعالى الحكمة في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال : ﴿١٢﴾ ليبين لهم الذى يختلفون فيه ﴿١٣﴾ : أى بل يبعثهم ليبين لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل ، وخالفتهم فيه أمهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب ، والمطيع من العاصي ، والظالم من المظلوم ، إلى نحو أولئك مما كان مدار دعوة أولئك الرسل وأنكرته الأمم الذين أرسلوا إليهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿١٤﴾ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿١٥﴾ .

أى وليعلم الذين جحدوا ووقع البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين في قولهم : ﴿١٦﴾ لا يبعث الله من يموت ﴿١٧﴾ وسيدعون إلى نار جهنم دعا وتقول لهم الزبانية : ﴿١٨﴾ هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحروا هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿١٩﴾ .

ثم اخبر سبحانه عن كامل قدرته وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فقال : ﴿٢٠﴾ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴿٢١﴾ : أى إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائه ولا بعثه لأننا إذا أردنا ذلك فإنما نقول له كن فيكون لا معاناة فيه ولا كلفة علينا .

ونحو الآية قوله ﴿٢٢﴾ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿٢٣﴾ .

وقوله : ﴿٢٤﴾ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴿٢٥﴾ .

وقوله : ﴿٢٦﴾ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴿٢٧﴾ .

(١) الآية ٢٨ من سورة لقمان .

(٢) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٣) الآية ٥٠ من سورة القمر .

وخلاصة هذا أنه تعالى مثل حصول المقدورات وفق مشيئته ، وسرعة حدوثها حين إرادته ، بسرعة حصول المأمور حين أمر الأمر وقوله ، دون هوادة ولا تراخ .

فضل الهجرة في سبيل الله

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

المناسبة

بعد أن حكى الله تعالى أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة ، وتمادوا في الغي والضلالة ، (ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقوم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء ، حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ومفارقة الأهل والأوطان) - ذكر هنا حكم تلك الهجرة وبين ماهؤلاء المهاجرين من حسنات في الدنيا ، وأجر في الآخرة ، من جزاء أنهم فارقوا أوطانهم وصبروا وتوكلوا على الله .

وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة ، واحتمال كل أذى في سبيل الله احتساباً للأجر .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في هذه الآية قال : (هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين) .

قال هشيم عن العوام عن حدثه : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أفضل . ثم قرأ هذه الآية ﴿ لنبوتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

ثم وصفهم تعالى فقال : ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

أى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

تهديد الكافرين

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾
أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتِّهُوا ظَلَمَ لَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

المفردات : ﴿البيئات﴾ : المعجزات الدالة على صدق الرسول ، ﴿الزبور﴾ : واحدها زبور وهي كتب الشرائع والتكاليف التي يبلغها الرسل إلى العباد ، ﴿الذكر﴾ : القرآن ، ﴿لتبين للناس﴾ : أى لتوضح لهم ما خفى عليهم من أسرار التشريع ، ﴿والمكر﴾ : السعى بالفساد خفيه ، ﴿والسيئات﴾ : أى الاعمال التي تسوءهم عاقبتها ، ﴿يخسف بهم الأرض﴾ : أى يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، ﴿في تقلبهم﴾ : أى في أسفارهم وسيرهم في البلاد البعيدة للسعى في أرزاقهم كما قال ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ (١) .

﴿بمعجزين﴾ : أى بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار ، ﴿التخوف﴾ : التنقص من قولهم تخوفت الشيء وتخيفته إذا تنقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتي عليها الفناء جميعاً ، ﴿ويتفياً﴾ : من الفىء يقال فاء الظل يفىء فيئاً إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ، ﴿والظلال﴾ : واحدها ظل وهو ما يكون أول النهار قبل أن تناله الشمس .
قال رؤبة : « كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل » .

﴿واليمين والشمائيل﴾ جانبنا الشيء الكثيف من الجبال والأشجار وغيرها والسجود : الانقياد والخضوع من قولهم سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل .

﴿داخرون﴾ : أى صاغرون منقادون واحدهم داخر وهو الذى يفعل ما تأمره به شاء أو أبى .

﴿يخافون ربهم﴾ : أى يخافون عقابه .

﴿من فوقهم﴾ : أى بالقهر والغلبة كما قال : ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ (٢) .

المناسبة

بعد أن ذكر جلّت قدرته ما قاله المشركون من أنهم لا حاجة بهم إلى الأنبياء ، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياة أخرى يحاسبون فيها ، وهم لا يصدقون بها ، وليس من المعقول أن يكون أردف

(٢) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف .

(١) الآية ١٩٦ من سورة آل عمران .

ذلك بشبهة أخرى لهم : إذ قالوا هب الله أرسل رسولا فليس من الجائز أن يكون بشراً ، فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر ، فلو بعث إلينا رسولا لبعثه ملكاً .

ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله أن يبعث رسوله من البشر ، وإن كنتم في شك من ذلك فاسألوا أهل الكتاب الذين آمنوا عن ذلك .

ثم هدهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون ، أو يأتيهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغته كما فعل بقوم لوط ، أو يأخذهم وهم يتقلبون في أسفارهم ومعايشهم ، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى . ثم أعقب هذا بما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى على أتم نظام وأحكم تقدير .

عن ابن عباس : لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ .

يعنى أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرته ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجلاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ (٢) .

ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وكذا يكون الغرض جاءت به هذه الآية الكريمة أن الذين أرسلوا قبل رسول الله ﷺ كانوا بشراً فما الذى يمنع أن يكون محمد بشراً رسولا .

قال تعالى : ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾ (٣) .

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ (٥) .
وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ﴾ (٨) .

(١) الآية ٢ من سورة يونس .
(٢) الآية ٩٤ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ١٠٩ من سورة يوسف .
(٤) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٥) الآية ٨ من سورة الأنبياء .
(٦) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٧) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا، هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بالبينات﴾ : أى بالحجج والدلائل ﴿والزبر﴾ : وهى الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

والزبر جمع زبور تقول العرب زبرت الكتاب إذا كتبه .

وقال تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾^(١) .

وقال : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ : يعنى القرآن ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ : أى من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه ، واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿ ولعلمهم يتفكرون ﴾ : أى ينظرون لأنفسهم فيبتدون فيفوزون بالنجاة فى الدارين .

وهكذا تقوم السنة المطهرة بتفصيل ما أجمل فى الكتاب العزيز وتوضيح ما أبهم وتخصيص العام منه وتقييد المطلق وتوكيد بعض آياته ولا استغناء عن السنة إذ هى المذكرة التفسيرية للكتاب الكريم .

قال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾^(٤) .

وقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾^(٥) .

وقال ﷺ : (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه) : يقصد سنته الشريفة : فالوحي قسمان وحي متلو وهو القرآن ، ووحى غير متلو وهو السنة .

قال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾^(٦) .

والبيان هنا السنة .

ففى الآية إشارة إلى أن الله تعالى قد حفظ السنة حفظها بالسند وقبض لها رجالاً أحاطوها بالبحث الدعوب وحرصوا على نقلها بصدق وأمانة ودونوها فى الكتب وعلى رأسها الصحيحان البخارى ومسلم فمن الذى علمنا أن الظهر أربع ركعات مثلاً . ومن الذى علمنا أن المرأة لا تنكح على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا ابنة أختها ، ومن أين علمنا أن الشرع قد حرم كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ؟

(١) الآية ٥٢ من سورة القمر .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٧ من سورة الحشر .

(٤) الآية ٨٠ من سورة النساء .

(٥) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

(٦) الآيات ١٦ - ١٩ من سورة القيامة .

إن الذى جاء بهذا البيان إنما هو سنة رسول الله ﷺ

قوله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴿١﴾ .

لا ينزل بلاء بغير ذنب ، ولا يرفع بغير توبة ، وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يقرن الجزاء بالعمل .

فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿٢﴾ (١) ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم شديد ﴾ (٤) .

وفى قوله جل شأنه ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ : إخبار منه جل شأنه عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحلمهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أى من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم قوله تعالى ﴿ أأنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ﴾ * أم أنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴿٥﴾ .

وقوله : ﴿ أو يأخذهم فى تقلبهم ﴾ : أى فى أسفارهم واشتغالهم بمعاشهم .

وقال قتادة ﴿ فى تقلبهم ﴾ : فى الليل والنهار كقوله ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ﴾ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴿٦﴾ .

وقوله : ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ : أى لا يعجزون الله على أى حال كانوا عليه .

قوله تعالى : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ : أى يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعد ذلك بأن يهلك طائفة فتخاف التى تليها حتى يأتى عليهم جميعاً ، ويكون هذا أشد عليهم إيلاماً ووحشية .

قوله تعالى : ﴿ فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾ : أى حيث لم يحاكمكم بالعقوبة كما ثبت فى

(١) الآيات ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٢) الآية ٧ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٥) الآيات ١٦ ، ١٧ من سورة الملك .

(٦) الآيات ٩٧ - ١٠٠ من سورة الأعراف .

الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيمهم »^(١) .
ومنها « إن الله ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »^(٢) . ثم قرأ رسول الله ﷺ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد .

وقال تعالى : ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾^(٣) .
قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون * والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة تنزهه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، يحيى العظام وهي رميم ، وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ، سجد له كل من في السموات والأرض من دابة ، والملائكة وكل ما يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل بكرة وعشيا ، وهم داخرون خاضعون لعظمته ، مقهورون بإرادته ، فهو مالك كل شيء ومليكه ، بيده مقاليد السموات والأرض .

قال تعالى : ﴿ والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾^(٤) .

وقوله : ﴿ والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ : أى تسجد لله غير مستكبرين عن عبادته . ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ : أى يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله . ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ : أى لا يعصون الله ما أمرهم كما قال تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾^(٦) .

(١) أخرجه البخاري في الأدب : ٧١ ، وفي التوحيد : ٣ . ومسلم في المنافقين : ٤٩ ، ٥٠ . والإمام أحمد في ٤ : ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم في البر : ٦٢ . وابن ماجه في الفتن : ٢٢ .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٤) الآية ١٥ من سورة الرعد .

(٥) الآية ١٨ من سورة الحج .

(٦) الآيات ٢٩ - ٣١ من سورة الأنبياء .

الرد على عقائد المشركين وأعمالهم

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلنَّهْيِ أَتْنِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُفُّكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمَنْ اللَّهُ
تُمْ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالْيَهُ تَجْعُرُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا
يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
سَبْحًا وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
كَظِيمٌ ﴾ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ فَالْيَهُ النَّاسُ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ دَابَّةً وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِلَّهِ مَا يَكْفُرُونَ وَتَصِفُ أَسْنَتَهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ
مُفْرَطُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾

المفردات : ﴿ الدين ﴾ : الطاعة والإخلاص ، ﴿ واصباً ﴾ : دائماً ، ﴿ واجباً ﴾ : خالصاً ،
﴿ تجأرون ﴾ : تصيحون بالدعاء يقال جأ جأراً جواراً والجوار مثل الخوار وهو صوت البقر ،
﴿ مسوداً ﴾ : المراد متغيراً والسواد كناية عن غمه بالبنت ، ﴿ كظيم ﴾ : ممتلئ غماً وحزناً أو هو
المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من شدة الأم مأخوذ من الكظامة وهو شد فم القربة ، ﴿ يتواري ﴾ :
يختفي ويغيب ، ﴿ هون ﴾ : هوان وبلاء ، ﴿ يدسه في التراب ﴾ : يواريه في التراب ويرده إليه ،
﴿ مثل السوء ﴾ : المثل المراد به الصفة الغريبة غرابة المثل ، ﴿ مفراطون ﴾ : متروكون فيها أو مقدمون
إليها .

المناسبة

لما بين سبحانه في الآيات السالفة أن كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس وجن وملك منقاد له
وخاضع لسلطانه اتبع ذلك بالنهي عن الشرك به وبين أن كل ما سواه فهو ملكه .

وأنة مصدر النعم كلها . وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه الضر فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد ثم يعلم الكفار بعدئذ ما يجلبهم من النكال والوبال جزاء لهم على سيء أعمالهم وقبيح أفعالهم . وبعد أن بين سبحانه سُخف أقوال الشرك أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم التي تمجها الأذواق السليمة .

قوله تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون ﴾ .

إخبار منه جل جلاله عن قوله لعباده لا تتخذوا إلهين اثنين وهذا نهى صريح عن الشرك قال صلى الله عليه وسلم : (اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)^(١) .

والشرك ذنب لا يغفره الله لمن مات عليه قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾^(٢) .

وفي آية أخرى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾^(٣) .

وقال في حديثه القدسي الجليل : [أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشريكه]^(٤) .

وقال سبحانه لحبيبه ومصطفاه ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾^(٥) .

وقال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ﴾ .

إنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه للدلالة على أن المنهى عنه هي الاثنينية وأنها منافية للألوهية ، كما وصف الإله بالوحدة في قوله ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ : للدلالة على أن المقصود إثبات الوجدانية وأنها من لوازم الألوهية .

أما الألوهية فغير منكورة ولا متنازع فيها .

﴿ فإياي فارهبون ﴾ : تقديم الضمير هنا يفيد التخصيص أى لا تخافوا سواي فأنا الرافع الخافض

المعز المذل المحيي المميت القابض الباسط الضار النافع وغيره لا يملك من الأمر شيئاً : ﴿ قل من رب

(١) أخرجه البخاري في الوصايا : ٢٣ . وفي الطب : ٤٨ . ومسلم في الإيمان : ١٤٤ . وأبو داود في الوصايا .

(٢) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٣) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٤) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٥) الآية ١٨ من سورة آل عمران .

السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو
يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴿١﴾ .

إن هذا الإله له ما فى السموات والأرض ﴿ وله الدين واصباً ﴾ : أى دائماً وخالصاً وواجباً .
﴿ أفغبر الله تتقون ﴾ ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه
وماربك بغافل عما تعملون ﴾ ﴿٢﴾ .

(يا ابن آدم لا تحف ذا سلطان مادام سلطاني باقيا وسلطاني دائم لا يزول أبدا . يا ابن آدم كن
واثقاً من رزق مضمون لك ما دامت خزائني مملوءة وخزائني مملوءة لا تنفذ أبداً ، يا ابن آدم لا ترى عيب
غيرك مدام فيك عيب والمرء لا يخلو من عيب أبداً يا ابن آدم لا تدع محاربة الشيطان ما دامت روحك فى
بدنك فإنه لا يدع محاربتك أبداً . يا ابن آدم لا تأمن مكرى حتى ترى نفسك فى الجنة وفى الجنة أصاب آدم
ما أصاب فلا تأمن مكرى أبداً . يا ابن آدم ما أحبنى من أحب المال وما أحبنى من أحب الدنيا فإنه لا يسع
قلب واحد حبى وحبها أبداً . يا ابن آدم ما خافنى من خاف الخلق وما توكل على من خاف فوات الرزق
وعزى وجلالى ما توكل على عبد إلا ادخلته الجنة واكفيته كل مهمة ومن اعتصم بغيرى أسخت الأرض
من تحته وقطعت الاسباب من فوقه ولا أبالى كيف أهلكته) .

قوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ : هذا إقرار لا يقبل الجدل أو النقاش فنعم الله على عباده
لا تعد ولا تحصى ونحن نقر بذلك ونؤمن به فالله فما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك
لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر ، قال تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب
أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ ﴿٣﴾ .

وقال جل شأنه فى حق سليمان عليه السلام : ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن
أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ﴾ ﴿٤﴾ .

وسورة النحل تسمى سورة النعم ، ففيها من ألوان النعم مراتب لا تحصى ، ومراق لا تستقصى ،
فمن عاش فى أسرارها واستضاء بضياؤها سلك مدارج الأنوار ووقف على دقائق الأخبار لذا لما طال تعداد
النعم قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ﴿٥﴾ .

ثم ذكر أنواعا من النعم ، ولما طال تعدادها قال تعالى : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم
تسلمون ﴾ ﴿٦﴾ .

(٤) الآية ١٩ من سورة النمل .

(٥) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

(٦) الآية ٨١ من سورة النحل .

(١) الآيات ٨٦ - ٨٩ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٣٣ من سورة هود .

(٣) الآية ١٥ من سورة الأحقاف .

وهكذا فالشكر على العباد واجب ، ومهما شكر الإنسان ربه فلن يحصى فضله .
 إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
 وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم
 قوله تعالى : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ : لأنكم تعلمون أنه لا يقدر على إزالته إلا هو
 فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسالون وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به .
 كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم
 وكان الإنسان كفوراً ﴾^(١) .

وقال ههنا : ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يشركون * ليكفروا بما
 آتيناهم ﴾ .
 واللام هنا لام الصيرورة والعاقبة . كما في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً
 وحزناً ﴾^(٢) .

أى كان المصير والعاقبة العداوة والحزن وكان المصير هنا الكفر بما آتاهم الله .
 قال تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ريح طيبة
 وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له
 الدين لئن أُنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يأبىها
 الناس إنما يبغىكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إنا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾^(٣) .
 وهذه حال فريق من الناس عرفوا الله فى الشدة ونسوه فى الرخاء ، قال الله فى حق هؤلاء :
 ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ : وهذا تهديد ووعد إذ لا يحيق المكر السىء إلا بأهله .

قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالفة لتسألن عما كنتم تفترون *
 ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون * وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم *
 يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون * للذين
 لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾ .

هذا إخبار عن بعض قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير
 علم ، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا : ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم
 فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾^(٤) .
 أى جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن

(١) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة يونس .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ١٣٦ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٨ من سورة القصص .

ذلك الذى افتروه واثفكوه وليعاقبنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم فقال : ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾^(١) .

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه ، فأخطئوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له ، ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ تلك إذا قسمة ضيزى ﴿^(٢) .

وقوله ههنا ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ : أى عن قولهم وإفكهم ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم للكاذبون ﴾ أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون ﴿^(٣) .

وقوله : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ : أى يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

فإنه ﴿ إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً ﴾ : أى كئيباً من الهم . ﴿ وهو كظيم ﴾ : ساكت من شدة ما هو منه من الحزن ﴿ يتوارى من القوم ﴾ : أى يكره أن يراه الناس ﴿ من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ﴾ : أى إن أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتن بها ويفضل أولاده الذكور عليه ﴿ أم يدسه فى التراب ﴾ : أى يدها ، وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية .

أفمن يكرهونه هذه الكراهية ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله .

﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ : أى بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه كقوله تعالى ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾^(٤) .

وقوله هنا : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ : أى النقص إنما ينسب إليهم .

﴿ والله المثل الأعلى ﴾ : أى الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾^(٥) .

أحمدك ربى على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك ، لو عاقبت الناس على ما هم عليه من الظلم ما تركت على وجه الأرض ما يدب ، إذا لأهلكتم إهلاكاً ، ولكن اقتضت حكمتك أن

(٤) الآية ١٧ من سورة الزخرف .

(٥) الآية ٦١ من سورة النحل .

(١) الآية ٥٦ من سورة النحل .

(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة النجم .

(٣) الآيات ١٥١ - ١٥٣ من سورة الصافات .

تؤخرهم إلى أجل أجلته ، فكل شيء عندك بمقدار ، وأنت عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، فإذا جاء هذا الأجل فإنهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

فوعدك الحق ، وقولك الحق ، فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم .

أنت البصير بعبادك العليم بأسرارهم ، الخبير بأخبارهم . سبحانك من قائل ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾^(١) .

فيا عباد الله : اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، فدولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وعلى الباغي تدور الدوائر: بانائم الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد تأتيه أسحارا

قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴾ : من قبائح هؤلاء واقتراءاتهم على الله أنهم جعلوا له ونسبوا إليه ما يكرهون من الإناث ، وكذلك جعلوا له شركاء من عبيده وهم لا يرضون لأنفسهم أن تشاركهم عبيدهم فيما يملكون ، قال تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾^(٢) .

وقع هذه الاقتراءات وتلك الضلالات تصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى أى لهم النجاه والفوز في الدنيا والآخرة .

﴿ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾^(٣) .

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾^(٤) .

قال تعالى : ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ : أى حقاً أن جزاء هؤلاء النار وهذا حكم عدل ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ : أى مهملون فيها مضيعون .

فاللهم عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة .

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآيات ٢٨ ، ٢٩ من سورة الروم .

(٣) الآيات ٩ ، ١٠ من سورة هود .

(٤) الآية ٥٠ من سورة فصلت .

نعم الله لا تحصى

تَأْتِيهِمْ لِقَائِهِمْ فِي يَوْمٍ يَكْفُرُونَ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٥﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُقَاتِلَ فِيهَا ذُرِّيَّتُكُمْ وَأَنْ يَكُونَ لَكُمْ فِيهَا آيَةٌ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

المفردات : ﴿ الأنعام ﴾ : الإبل والبقر بنوعيه والضأن والمعز ، ﴿ لعبرة ﴾ : العبرة تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ، ﴿ فرث ﴾ : الفرث ما ينزل إلى كرش الحيوان فأما الخارج منه فلا يسمى فرثاً ، ﴿ رزقا حسنا ﴾ : جميع ما يأكلون من هاتين الشجرتين ، ﴿ وأوحى ﴾ : الوحي قد يستعمل بمعنى الإلهام وهو ما يخلق في القلب ابتداء من غير سبب كالغرائز والطباع في الحيوانات ، ﴿ مما يعرشون ﴾ : من الذي يعرشه ابن آدم ويعمله بيده كالخلايا من الطين والغاب والخلايا الحديثة من الخشب والزجاج .

المناسبة

لما حكى سبحانه عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم ، بين هنا حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته ، ولو أخذهم بما كسبت أيديهم ما ترك على ظهر الأرض دابة ، أما الظالم فبظلمه ، وأما غيره فبشؤمه ، كما قال سبحانه ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ (١) .

لكنه سبحانه يحلم ويستر وينذر إلى أجل مسمى ثم سلى رسوله ﷺ على ما كان يناله من أذى

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

عشيرته بأن قومه ليسوا يبدع في الأمم ، فقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فكذبوهم فللك بهم أسوة فلا يحزنك تكذيبهم ولا تبخع نفسك عليهم أسي وحسرة .

وبعد أن وعد المؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار ، وأوعد الكافرين بنار تلظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الاشرارك بربهم ، ونسبة البنات ، إليه وافترائهم عليه ما لم ينزل به سلطانا ، عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قبل أنه قطب الرحي في الدين الإسلامي وكل دين سماوي ويليه إثبات النبوات والبعث والجزاء ، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها ، وثنى بإخراج اللبن من الأنعام ، وثنت بإتخاذ الخمر والخل والدبس من الأعناب والنخيل ، وربيع بإخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس .

وقد بين أثناء ذلك كيف أهتم النحل ببناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فج .

قوله تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم وهم عذاب أليم ﴾ .

هذا قسم من الله تعالى ، والتاء هنا لا تدخل إلا على لفظ الجلالة ، والله تعالى هو المقسم بذاته ، والمقسم عليه ﴿ لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ .

ولله تعالى أن يقسم بما شاء ومن شاء من خلقه ، فهو خالق الإنسان ومبتدع الألوان ومكور الليل على النهار والنهار على الليل ، يقسم أحيانا بالأجرام الفوقية كالشمس والقمر ، ويقسم بالنجم إذا هوى ، كما يقسم بالأرض والليل والتين والزيتون وطور سينين ، أما غير الله من المكلفين فلا يجوز لهم أن يقسموا إلا بالله سبحانه ، وعليهم أن يكونوا صادقين في أيمانهم ، وألا يجعلوا الله عرضة لأيمانهم فيقسمون إذا اضطروا .

وفي هذه الآية الكريمة ما يفيد تسلية الرسول عما وقع من قومه له : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾^(١) .

وقال جل شأنه ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾^(٢) .

يا محمد لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك أنبياء ومرسلين مبشرين ومنذرين ، وكذبوا وأوذوا فلا تبشش بما يفعل هؤلاء ﴿ ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون ﴾^(٣) ، ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾^(٤) ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين * وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن

(٣) الآية ١٢٧ من سورة النحل .

(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .

(١) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

(٢) الآيات ٥٢ - ٥٥ من سورة الثريات .

استطعت أن تتغنى نفقاً في الارض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴿١﴾ .

واعلم أن هؤلاء الضالين المكذبين من الأمم قد زين لهم الشيطان أعمالهم ﴿٢﴾ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴿٣﴾ هذه قمة الضلال أن يرى الانسان حسناً ما ليس بالحسن ، قال تعالى : ﴿٤﴾ وزين لهم الشيطان أعمالهم قصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴿٥﴾ .

فالشيطان وليهم اليوم وساء ولياً ﴿٦﴾ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴿٧﴾ ، ﴿٨﴾ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٩﴾ .

﴿١٠﴾ وهم عذاب أليم ﴿١١﴾ : أى مؤلم ﴿١٢﴾ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴿١٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿١٤﴾ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴿١٥﴾ : لو أن هؤلاء الغافلين أزالوا الغشاوة عن عيونهم ، والأكنة عن قلوبهم ، والوقر من أذانهم ، لا تنفعوا بهذا الكتاب ، ولعلموا أنه الفصل ليس بالهزل ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ، فيه تفصيل كل شيء ، فهو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء ﴿١٦﴾ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿١٧﴾ .

لقد كانت الجن أحسن حالا من كثير منا ، إنهم عندما سمعوا القرآن فقالوا ﴿١٨﴾ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشده فآمننا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴿١٩﴾ ، ﴿٢٠﴾ فمالهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴿٢١﴾ .

والقرآن تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿٢٢﴾ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴿٢٣﴾ .

(١) الآيات ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام . (٥) الآية ٢٥ من سورة البقرة . (٩) آيات ٢٠ ، ٢١ من سورة الانشقاق .

(٢) الآية ٨ من سورة فاطر . (٦) الآية ٥٦ من سورة النساء . (١٠) آيات ٣ - ٨ من سورة فصلت .

(٣) الآية ٢٤ من سورة النمل . (٧) الآيات ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

(٤) الآية ٣٨ من سورة النساء . (٨) الآيات ١ ، ٢ من سورة الجن .

يا أمة القرآن : اقرأوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، إن من قرأ القرآن بلسانه ، وبين اللسان والقلب حجاب ، أو سمعه بأذنيه وبين السمع والفؤاد سور له باب ، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه وما هو ببالغه .

ورضى الله عن قوم نظر الله إليهم في جوف الليل وأصلاهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار زفر زفرة كأن جهنم بين أذنيه ، كانوا شبابا مكتهلين في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، قصيرة عن الباطل أرجلهم .

إن في القرآن بياناً لكل ما اختلف فيه ، وتفصيلاً لكل ما أجمل ، وتوضيحاً لكل ما أبهم ، فيه هدى للقلوب ورحمة للنفوس لقوم يؤمنون ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ .

إن القرآن نزل على القلوب فشفاهها من العلل والأمراض ، كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى ، وكما ينزل الغيث على الأرض الموات فيحوها إلى جنات باسمات فينبت فيها بإذن ربها من كل زوج بهيج : ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

ومن ثم فقد جاء قوله تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ : بعد ذكر الكتاب ففى القرآن إحياء للقلوب ، وفي الماء إحياء للأرض الموات .

﴿ لقوم يسمعون ﴾ : سماع استجابة ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ (١) .

وقال جل شأنه حكاية عن أهل النار : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ (٢) .

فالقرآن فيه حياة والماء فيه حياة ولكن ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٣) . قال تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً ﴾ (٤) .

وبعد أن بين الكتاب العزيز المقارنة بين المنكرين والمتقين ، نواصل النظرات في « سورة النحل » لنسجل الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة على وحدانية الله تعالى ، حيث ينتقل بنا النظم الكريم إلى مصانع الألبان الالهية قال تعالى : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ .

والمراد بالأنعام هنا ، الابل ، والبقر ، والغنم . وقوله : ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا ﴾ : أى يتخلص اللبن : بياضه وطعمه ، وحلاوته ، من بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم

(١) الآيات ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٠ من سورة الملك .

(٣) الآية ٣٧ من سورة ق .

(٤) الآية ٧٣ من سورة الفرقان .

يجرى في العروق ، ولبن يجرى في الضروع ، وبول في المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه : لا في لونه ، ولا طعمه ، ولا ريحه .

فمن الذى ميز بين هذه الأشياء الأربعة : الدم ، واللبن ، والبول ، والروث وجعل لكل منها سلكاً خاصاً : أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟

كلا ! ! إنها مصانع الألبان ، من طراز « كن فيكون » : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴿^(١)﴾ .

وقوله : ﴿ لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ : أى لا يغيص به أحد ، مع اشتاله على عناصر غذائية ، ولذا كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاماً فيقول : (اللهم بارك فيما رزقتنا ، وزدنا خيراً منه)^(٢) أما إذا شرب اللبن فكان يقول : (اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وزدنا منه)^(٣) .

من أجل ذلك كانت الهدية التى قدمها الأمين جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج : هى اللبن وبعد ما شرب قال له الأمين عليه السلام : لقد اخترت الفطرة : أى الصفاء الذى لا تشوبه كدرة .

قوله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ .

وتلك نعمة أخرى من نعم الله على عباده أن سخر لهم ما فى الأرض جميعاً ، من هذه الخيرات ثمرات النخيل والأعناب حيث يتخذون منها المواد السكرية ، ويصنعون من تلك الثمرات أنواعاً من الحلوى فيها رزق حسن وشفاء ودواء وغذاء ، إن فى ذلك لآية وعبرة لقوم يعقلون ويتدبرون ، من الذى أجرى هذا السكر السائل فى ثمرات تلك النخيل الباسقات وكروم الأعناب على مختلف أشكالها وألوانها ، الكائنات متعددة وخالفها واحد لأن ما بالطبيعة لا يختلف ولا يتخلف ﴿ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾^(٤) ، ﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم ﴾ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴿^(٥)﴾ .

فاسألوا علماء النبات من خالق تلك الثمار ؟ الصدفة العمياء أم الطبيعة الصماء ! ! كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

ويتنقل بنا النظم الكريم من مصانع الألبان والحلوى إلى « مصانع العسل » الذى يخرج من بطون النحل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما

(١) الآيتان ١٥٨ ، ١٥٩ من سورة يس .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات ٧٨ . والإمام مالك فى صفة النبى : ٣٤ . والامام أحمد فى ١ : ١٥٣ ، ٤ : ٦٣ ، ٥ : ٣٦٧ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأشربة ٢٠ . والامام أحمد فى ٤ : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٤) الآية ٦٤ من سورة الواقعة .

(٥) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة لقمان .

يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿١﴾ : وفى هاتين الآيتين الكريميتين مباحث

المبحث الأول كلام المفسرين عنهما

قال علماء التفسير فى هاتين الآيتين كلاماله وزنه وقيمتة العلمية ، قالوا : المراد بالوحى هنا : الالهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون . ثم إن هذه البيوت محكمة فى غاية الإتقان ، حيث بنيت على نظام المسدسات ، وهى أشكال هندسية بديعة ، بحيث لا يكون فى بنائها خلل .

ثم أذن لها تعالى إذنا قديراً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذلة لها ، أى سهلة عليها ، حيث شاءت ، من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة ، والأودية ، والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لاتحيد عنه يمنه ولا يسرة ، بل إلى بينها وما لها فيه من فراخ وعسل . فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتخرج العسل من بطونها ، وتبيض الفراخ من أديارها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ : ما بين أبيض وأصفر وأحمر ، وغير ذلك من الألوان الحسنة ، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها .

وقوله : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ : أى فى العسل شفاء للناس : أى من داءات يتعرضون لها . قال بعض من تكلم عن الطب النبوى : لو قال فيه الشفاء للناس : لكان دواء لكل داء ، ولكنه قال : فيه شفاء للناس ، أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، لأنه حار ، والشئ يداوى بضده .

وقد ثبت فى الصحيح أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : (إن أخى استطلق بطنه ، فقال « اسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ، قال : « اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً ! » فذهب فسقاه عسلاً ، فبرىء) (١) .

قال بعض العلماء فى الطب تعليقاً على هذا الحديث الشريف : كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلاً - وهو حار - تحللت ، فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه ، فازداد التحلل والدفع ، ثم سقاه ، فكذلك . فلما اندفعت

(١) أخرجه البخارى فى الطب : ٢٤ . ومسلم فى السلام : ٩١ . والترمذى فى الطب : ٣١ . والامام أحمد فى ٣ : ١٩ .

الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ، ببركة إشارته ﷺ .

وقد روى البخارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : (كان يعجبه الحلواء والعسل)^(١) . وفى هذا إشارة إلى ما فى العسل من القيمة الغذائية الكاملة ، كما ورد عنه ﷺ فيما رواه الامام ابن ماجة فى سننه عن عبد الله بن سعود رضى الله عنه قال : « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن »^(٢) .

وآية الشفاء فى العسل قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ : وآيات الشفاء بالقرآن . قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ﴾^(٣) وقوله تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾^(٤) وقوله جل شأنه : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾^(٥) .

وروى ابن ماجة أيضاً أن النبى ﷺ قال : (من لعق العسل ثلاث غدوات فى كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء)^(٦) .

ثم يقول المفسرون فى ختام هذه الآية ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ : أى أن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الحلقة ، إلى السلوك فى هذه الشواهد من الجبال ، والباثقات من الاشجار ، والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل - وهو من أطيب الاشياء - لآية لقوم يتفكرون فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

المبحث الثانى

ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته

إن مملكة النحل عجيبة الصنع ، محكمة الاتقان ، ولقد أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر العباد إلى بيوت النحل - التى تعتبر أحسن مثل لهندسة المباني وتعاون أفراد النحل .. فيقول عز من قائل فى سورة النحل : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ﴾ : وقد أثبت التاريخ أن النحل اتخذ بيوته من الجبال أولاً ، ثم فى الأشجار ثانياً ، ثم فى الأعراش والحلايا بعد ذلك .

(١) أخرجه البخارى فى الطلاق : ٨ ، وفى الأطعمة : ٣٢ ، وفى الاشارة : ١٠ ، ١٥ ، وفى الطب : ٤ ، وفى الحيل : ١٢ . وأخرجه مسلم فى الرضاع : ٨٨ ، وفى الطلاق : ٢٣ . والترمذى فى الاطعمة : ٢٩ . وابوداود فى الاشارة : ١١ . وابن ماجة فى الاطعمة : ٣٤ . والامام أحمد فى ٦ : ٥٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٧ . (٥) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

(٣) الآية ٥٧ من سورة يونس . (٦) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٧ .

(٤) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

ويقول العالم (موريس مترلنك) في كتابه (حياة النحلة) : إنه سواء أذهب النحل إلى حيث شاء أم وضعه النحال في مكان جديد ، فإن العدد الأكبر منه يؤلف من نفسه - وهو متلاحق متماسك - ستاراً مثلثاً كثيفاً أشبه بمخروط مقلوب رأسه ، ويظل مدة من الزمن تتراوح بين ١٨ ، ٢٤ ساعة على هذا الحال ، تظهر بعدها طبقات بيضاء شفافة تحت معدة كل نحلة ، وتكون جماهير غيرها قد تولت كنس الأرض وإزالة القش وكافة المواد الغريبة ثم مسحها وسد الشقوق .

وفجأة نرى نحلة من المخروط المقلوب وقد انفصلت عن البقية وصعدت إلى أعلى موضع من البيت تنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدلّية من بطنها وبأرجلها تدحوها وتشرها وتلصقها بأعلى نقطة في البيت ، وبهذا تضع حجر الزاوية في مدينة النحل ، ثم تغادر المكان حيث تحل غيرها مكانها لتضيف إلى حجر الزاوية قطعاً من الشمع ، ومتى بلغت سمك هذه القطع الشمعية حد الكفاية ، خرجت نحلة من الجماعة تختلف عنها شكلاً وتدل هيئتها على أنها مهندس قدير ، وهي لا تنتج شمعاً فتأخذ في الطيران والوقوف ، ثم الطيران والوقوف ، فتحدد في ذلك مواقع الغرف التي يقوم ببنائها العمال .

وينشئ النحل أربعة أنواع من الغرف : هي الغرفة الملكية ، وغرف الذكور ومخازن الطعام ، والغرف الصغيرة التي هي مهد للعمال والمخازن العادية - وهي تشغل أربعة أخماس الخلية - وغرف الانتقال للوصول بين الغرف وبعضها ، وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسدسة الأضلاع على قاعدة هرمية . ويقول الدكتور (ريد) إنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكله ، دون أن تكون هناك مسافات بينها لافائدة منها ، وهذه الأشكال هي : المثلث المتساوي الأضلاع ، والمربع ، والمسدس المنتظم . والمسدس أصلحها ، وهو ما يعمله النحل . وقد عين « ماك لورين » الزاوية التي تلتقي عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد ، فوجد أنها هي نفس الزاوية التي يلتقي عندها فعلاً سطح أرض غرفة النحل .

ويقول « مترلنك » ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية ، لا يسعنا إلا أن نظل ، على ذكر آية من آياتها هي الحجرة المسدسة ، التي تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق ، فلا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقریات البشر مجتمعة آية تحسينات : (ولو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع) !!!

خبرني بربك في أي الجامعات تخرجت هذه المخلوقات العجيبة ؟ وفي أي أقسام المعمار تخرج عبارة المهندسين في النحل ؟ وعلى أي الأساتذة درسوا علم التفاضل والتكامل ، ليخرجوا لنا أعظم إنتاج بأقل تكاليف لازمة ؟ ومن الذي ألهمهم الغزيرة أن يشيدوا تلك البيوت العجيبة : أهي الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟ والله ما هذا ولا ذاك ، وإنما هو الله العزيز الحكيم ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون ﴾ : ويقولون :

أين الله ، أين عجائبه ؟
 ويشكون ، والايامن ملء قلوبهم
 عجايب ربي في الأنام كثيرة
 ولكن جهل المرء - لاشك - غالبه !
 وإذا الكون يسفر ناطق وهو كاتبه !
 ويدون ما كل العقول تكذبه !
 إن بيوت النحل إنما هي مصانع من طراز « كن فيكون » أبدعتها يد القدرة ، لتكون آية لقوم
 يتفكرون .

المبحث الثالث

ما يقرره الطب الحديث في الشفاء بعسل النحل

يقول عز من قائل : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ :
 اعلم يا أخا الإسلام أن هذا المشهد القرآني الذي نحن بصدده - من أول قوله تعالى : ﴿ وإن لكم
 في الأنعام لعبرة ﴾ : إلى قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ﴾ : وقد اشتمل على
 ثلاثة أنواع من الأغذية :

أولها : غذاء حيواني ، وهو اللبن .

ثانيها : غذاء نباتي ، وهو المتمثل في قوله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه
 سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ .

وليس المراد « بالسُّكر » هنا المادة المحرمة ، كما ذهب البعض إلى ذلك ، لأن هناك فرقا بين السُّكر
 (بضم السين وسكون الكاف) وبين « السُّكر » في الآية الكريمة ولكن النظرة الثاقبة تفيد أنها آية
 امتنان وتفضل من الله ، لادخل لها بالسُّكر الذي يذهب بالعقول ، وبدليل أن الله جل شأنه عطف عليها
 بقوله ﴿ ورزقا حسنا ﴾ : وبدليل أن ختام الآية جاء بـ : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ .

فكيف يكون في السُّكر آية للعقلاء ؟

وبدليل أن الآية توسطت آيتين اشتملتا على أعظم النعم ، هما : اللبن ، والعسل ، فلو لم تشتمل
 على نعمة مماثلة لهما في الغذاء الحلال : ماتوسط هذا العقد الفريد .

وأخيراً : فهناك فرق بعيد بين السكر والسُّكر ، فلا داعي لأن نقول إن الآية قد نسخت وأن المراد
 « بالسُّكر » هو « السُّكر » إذ أن الفرق بينهما بعيد ، حيث إن المراد بالسكر (بفتح السين والكاف)
 هو المادة السكرية العظيمة في ثمرات النخيل والأعناب .

ثالثها : أنواع من الأغذية ، غذاء حشري ، وهو عسل النحل ، فماذا يقول الطب في هذا

الأخير ؟

إن عسل النحل فوق كونه غذاء ، فإنه أيضاً فيه شفاء .
وفي قوله تعالى : ﴿مختلف ألوانه﴾ : فإن هناك عسلاً أصفر ، وآخر أحمر ، وثالثاً غامقاً ،
كعسل مدغشقر .

ثم إن العسل يحتوي على :

- ١ - نوعين من السكر الجلوكوز والليفيلوز .
- ٢ - أصماغ طبيعية وأصماغ النشا .
- ٣ - فيتامينات أ ، ب والفيتامين ج موجود ، ومركز بكمية كبيرة .
- ٤ - بعض المعادن : كالكالسيوم ، والبوتاسيوم ثم حامض النحل .
- ٥ - بيض النحل ، الذى يكاد لا يرى من صغر حجمه .

عسل النحل وفوائده

١ - المواد السكرية :

العسل كغذاء : أهم ما فى العسل : نوعا السكر المذكوران ، وهذان النوعان لا يحتاجان لهضم ،
كسكر القصب ، بل يمران من القناة الهضمية إلى الدم بدون تغير وهذه ميزة كبرى لعسل النحل .
والسكر من ضروريات الحركة : كضربات القلب ، والتنفس ، والحركة العادية ، ويمكن للإنسان
أن يقوى بطريقة أسرع لو غذى بهما : سواء بالقم ، أو حقناً فى الوريد .. ففى الحميات - مثلاً -
يصبح غذاء المريض سهل الامتصاص إذا حلى شراب الليمون بالعسل ، أو اللبن بالعسل ، لأن الجهاز
الهضمى يتلبك أثناء الحميات ، فلا داعى لاشغاله بتحليل سكر القصب إلى جلوكوز أو ليفيلوز .
وفى حالات المرض بالبول السكرى ، فإن تحلية السوائل بالعسل أقل ضرراً من تحليتها بسكر
القصب أو النشويات ، وذلك لأن الليفولوز لا ينقلب إلى سكر بول .

العسل كملين :

يعطى للأطفال « العسل » كملين ويدخل فى وصفات المليينات . كالسنا (سلمكه) ، فيمزج
مسحوق « السنا » مع العسل فيزيد قوة تليينها ويعمل العسل حقنة شرجية بمقدار فنجان قهوة كبير على
كوب ماء دافئ فيأتى يلين أكثر ، وأقل ضرراً ، وهو أحسن من الجلسرين فى هذه الوصفة .

العسل كدواء للأمعاء :

إذا كانت الأمعاء تخمر النشويات وسكر القصب ينتج من التخمر ثانى أكسيد الكربون - أى

غازات بدون رائحة - ويحدث انتفاخاً بالبطن ، فإن العسل أقل ضرراً في هذه الحالة من سكر القصب ، لأن سرعة امتصاصه تعيق تخميره .

٢ - الأصماغ

الأصماغ والعسل يلينان البلغم - ويسهلان خروجه ، فيفيدان في امراض الجهاز التنفسي العادية .

٣ - الفيتامين ج

موجود بكثرة في العسل ، وهو أهم فيتامين يحتاج له الجسم ، فيساعده على الحركة ، ومقاومة الأمراض ، ويقوى أسنانه وعظامه اللينة ، ويظهر لذلك سببان لاستعمال العسل في الحميات ، وهى : إيجاد غذاء لا يحتاج لهضم وفيتامين « ج » لمقاومة المرضى أما الفيتامينات (أ) (ب) فإنها نافعة ، إلا أن كميتها ضئيلة .

٤ ، ٥ - المعادن وبيض النحل

موجود بكمية صغيرة تزيد في التغذية ، كذا حامض النحل كمقوٍ للعضلات أما بيض النحل ففيه مواد زلالية نافعة ومغذية .

إن العسل مفيد في كل زمان :

- ١ - في تغذية الأطفال والمرضى .
- ٢ - في علاج تخمرات الأمعاء من تناول النشويات .
- ٣ - في تحلية سوائل مرضى البول السكرى .
- ٤ - كملين للأطفال .
- ٥ - ومسهل بحقنة شرجية .
- ٦ - ثم مفيد في حالات السعال مع بلغم بالجهاز التنفسي .

حقائق علمية

ولكى نزيد هذا الأمر وضوحاً ، ونفصله تفصيلاً يليق بإعجاز القرآن الذى يثبت نبوة محمد ﷺ : ننقل هذه الحقائق العلمية عن فريق من الأطباء الباحثين الذين قالوا فى قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ :

لم يعرف قدر هذه الآفة العلمية الطبية - التي تعتبر دليلاً ما بعده دليل على معجزة القرآن العلمي - إلا في السنين الأخيرة من القرن الحالى فإن عسل النحل هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب فهو يعطى بالفم . وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ، ومغذيا ، وضد التسمم الناشئ عن مواد خارجية ، مثل الزرنيخ ، والزرنيق ، والكلوروفورم ، وكذلك ضد التسمم الناشئ عن أمراض فى أعضاء الجسم مثل التسمم البولى والنتاج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء وفى الحميات والحصبة ، والتهاب الرئوى ، والسحائى وفى حالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد ، وفى احتقان المخ والأورام المخية .

إذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين - حتى فى حالة التسمم الناشئ من مرض البول السكرى - علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره صدفة ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد . وتفيد الأخبار الطبية أن الباحثة الأمريكية « جوليا تشرش » قد توصلت - بعد تجارب متعددة - إلى أنه توجد مادة مجهولة فى عسل النحل وشمعه ، لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ووجدت أن العسل المستخرج من القرص مباشرة - دون أن يسخن أو يتعرض لأى معاملة صناعية - يقضى على تصلب الرسغين الذى يصيب بنى الانسان .

هذا ، وقد اتجهت الأبحاث العلمية التى تجرى على النحل وعسله إلى دراسة سم النحل : إذ تقوم حالياً بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذى يفرزه عن طريق آلة اللسع - لاستعماله فى معالجة بعض الأمراض المستعصية ، وفى أمريكا وانجلترا حالياً « مناحل » لاغرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية ، وعرق النساء والرمد الحبيبي . ومازال العلم يحمل إلينا كل يوم فائدة طبية ، إلى جانب الفوائد التى ذكرناها فيما يخرج من بطون النحل .

وقد ذكرت الصحف اللندنية أنه توجد بلندن امرأة نمساوية تدعى مسز « أوين » تداوى المرضى الذين يعس الأطباء من شفائهم ، بقرص النحل ، وقد أثار خبر هذه السيدة اهتماماً كبيراً فى أوساط لندن ، لاسيما وأن نتائج معالجتها قد أدت إلى الشفاء .

ومن الأخبار العلمية التى نشرت فى صحف ٦ مارس ١٩٥٦ أن أحد كبار الجراحين فى مستشفى « نورفولك » الإنجليزى : استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التى يجريها ، وذلك بعد أن ثبت له أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح وإزالة آثارها ، فلا تترك تشوهات بعد العملية ، كما تبين له من التجارب التى أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد ، فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، ويقوم الطبيب المذكور برش العسل على موضع الجرح بصورة سائلة أو على هيئة حبيبات .

وقد أعلن البروفسور « كلود هيليو » من علماء فرنسا أن هناك نوعاً من النحل يسمى « النحل الملكي » له قدرة على إفناء جميع أنواع الجراثيم ، وأنه سيحقق للإنسانية فوائد عظيمة . ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾^(١) .

إلهنا ما أعظمك

خبرني بربك يا أبا الإسلام في أي الجامعات تخرج محمد بن عبد الله ؟ وعلى الأساتذة تلقي العلوم ؟ من الذي علم محمداً منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ما أذهل العقول وحير الأفكار ؟ إنه الله الذي قال له : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾^(٢) .

فبينما العلماء المحدثون يجرون أبحاثهم ، وتتوارد الأنباء عن جهودهم - نرى ونقرأ القرآن الكريم منذ الآماد البعيدة يقول في إنجاز المعجز ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ : ويقول خاتم الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه : (عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن)^(٣) .

هل دخل محمد ﷺ المعامل التحليلية واستعمل الأجهزة الدقيقة ؟ هل ذهب إلى أستاذ في الطب ووظائف الأعضاء وتلقى على يديه العلوم الكونية ؟ إن العالم يشهد أن رسول الله ﷺ لم يذهب إلى جامعة من جامعات العالم ، ولم يتلمذ على أستاذ من الأساتذة وإنما أوحى الله إليه بكتاب حكيم : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾^(٤) . وقال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾^(٥) .

المبحث الرابع

الرد على أعداء الإسلام في آية النحل

يحاول المستشرقين ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستغربين أن يثيروا الغبار على كل قضية من قضايا الإسلام بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وهم في الحقيقة أقزام يمضغون الهواء ويحاولون أن يقتلوا من الرمال حبلاً وأن يطاولوا السماء ويمدوا إلى الشمس يدا سلاء .

العقاد والرد على المبشرين :

في كتاب (ما يقال عن الإسلام) للكاتب الكبير المرحوم الأستاذ العقاد وقفت على مقال في هذا

(٤) الآية ٤٢ من سورة فصلت .
(٥) الآيات ١ - ٥ من سورة العلق .

(١) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١١٣ من سورة النساء .
(٣) أخرجه ابن ماجه في الطب : ٧ .

الصدد رأيت أن أسجله على هذه الصفحات لما يحويه من فوائد جلية .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله : إن العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشيء بالغباوة والقداسة لعله واحدة في وقت واحد فإن تقبل العقل ذلك فلا بد من سبب يوقعه في هذه الاضطراب بإختياره وأكثر ما يكون ذلك السبب مرضاً من أمراض الجنون أو هوى دفيناً يحمل على المغالطة ويعجزه عن مقاومتها أو خداعاً مقصوداً يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ويصطنعه مع غيره لغشه والاحتيال عليه .

ولسنا نخطئ القول في أن جماعات المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الإسلام آفة من هذه الآفات فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخطي في التفكير كما يتخطى المصابون بالعلل العقلية أو يملكه التعصب الذميم فيقوده إلى المغالطة ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه أو يعمل عمل المحترف الذى يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ولا يعفيه أن يعرض بضاعة ويهيبها لها أسباب النفاق في السوق وربما اكتفى من النفاق بإقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة في العرض والترويج وبعد هذه المقدمة : عرض الأستاذ العقاد قضية من القضايا الباطلة التى أثارها المبشر (صمويل زويمر) في كتابه (بلاد العرب مهد الإسلام) في فصل عن (العلوم والفنون العربية) .

قال (صمويل زويمر) في هذا الفصل إن الشهد لم يزل معدوداً كالترياق في بلاد العرب استناداً إلى القرآن والحديث وقد كانت الإشارة الوحيدة إلى الطب في وحي محمد (ﷺ) هذه الكلمة (الغبية) التى يقول فيها عن النحل إنه ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذى وصفه الله في كتابه .

ثم يرد الأستاذ العقاد على هذه الفرية التى افترها ذلك المبشر فيقول : إن الرجل المعتمد ظاهر في قوله هذا العلامة (الغبية) إن القرآن حصر الطب كله في دواء واحد هو (الشهد) فإن المعنى الذى تفيده الآية بغير لبس ولا محاولة .

إن الشهد (شفاء) ولم تقل إنه كل الشفاء ولا إنه شفاء من جميع الأمراض فإن وصف (الشهد) بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية . كما يوصف أى عقار من العقاقير فى الصيدليات ، ومثل هذا الادعاء (التبشيري) لا يعتسف اعتسافاً بهذه الصورة إلا للاقتراء المتعمد طمساً للحقيقة مع سوء النية .

أما حجم العلاقة (بالغباوة) على وصف الشهد بالشفاء فليس له معنى غير الغباوة المطبقة فى القائل إن كان مصدقاً لما قال .. لم لا يكون الشهد دواء من الأدوية وهو خلاصة أعشاب وأزهار . إن علاج الأمراض بالأعشاب والأزهار قديم جداً فى كل أمة وهو قوام للعلاج إلى اليوم فى أكثر الأدوية التى يصفها الأطباء المصريون لضروب شتى من الأمراض وتستحضرها معامل الكيمياء فى بلاد الحضارة .

وهذا قبل شيوع الكلام عن (الفيتامينات) وتقرير العلاج بها للأمراض الباطنية وأمراض الأعصاب وعلل الضعف والإعياء على اختلافها فلماذا يمتنع عن العقل كل الامتناع أن يصف دواء (الشهد) بوصف غير الغباوة لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع الفيتامينات والحيوانات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض .

إن (الغباوة) هي عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة أو عجزه عن فتح الباب لقصورها على كل احتمال .

وإلى هنا قد تكون (الغباوة) مفهومة إذا هي تشابهت في سوء الفهم ولم تخصص للشهد دون غيره ولكنها (غباوة) تنزل إلى مادون مستوى الفهم إذا كان صاحبها يرفض (الشهد) علاجاً ثم يتقبل تطهير الأمراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل أن تكون رائحة الشواء سروراً للإله .

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً : بعد وفاة (زويمر) بيضع سنوات ظهر باللغة الإنجليزية كتاب عن الطب الطبيعي يقول مؤلفه عن (الشهد) ما كان (زويمر) يدعيه على القرآن الكريم .

ويعقد المؤلف لخصائص (الشهد) الطبية فصلاً مستقلاً يوشك أن يجعله (صيدلية) وافية تغني عن عشرات من العقاقير وليس المؤلف واحداً من أولئك المتطبين الجهلاء بل هو الدكتور (جارفيس) الطبيب المتخرج في مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية العديدة وهو لا يعلل فائدة (الشهد) في العلاج (بالبركة) ولا بالتأثير النفساني المستمد من العادة ولا بالتغذية الصالحة التي تعمل عمل الدواء وإن لم يحسبها الأطباء من الأدوية العلاجية ولكنه يعلله بأسباب علمية يعتمدها الأطباء والصيدليون في تحضير الأدوية وتقسيمها على حسب الجرائم التي تحدث الأمراض أو تضاعف أضرارها ويقول في تمهيدات فصل مطول كتبه عن (الشهد) خاصة .

إنه لا يتكلم عن نظرية معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التي أثبتت أن (البكتريا) لا تعيش في (الشهد) لاحتوائه على مادة (البوتاس) وهي تحزم (البكتريا) تلك الرطوبة التي هي مادة

قال : إن الدكتور (ساكيت) أستاذ البكتريا بكلية الزراعة في (فورت كولنز) وضع أنواعاً من جرائم الأمراض في قوارير مملوءة بالعسل الصرف فماتت جرائم (التيفود) بعد ثمان وأربعين ساعة ، وماتت جرائم (النزلات الصدرية) في اليوم الرابع ، وماتت الجرائم الدوستاريا بعد عشر ساعات ، وماتت جرائم أخرى بعد خمس ساعات .

ثم استطرد المؤلف إلى بيان المواد الغذائية الموقورة في (الشهد) فذكر منها الأغذية المعدنية وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل في تركيبه .

ونقل تقرير الأستاذ (شويت) العالم الكيماوى الذى يقول فيه : إن الأغذية المعدنية تختلف

باختلاف ألوان (الشهد) : فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر في (الشهد) الضارب إلى السواد والحديد ضرورى لاتصاله بالمعادن الملونة للدم أو للهيوجلوبيين .

ويلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب كما جاء في القرآن الكريم وهو يشير إلى اختلاف ألوانه وما احتوته عن أسباب الشفاء ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية في (الشهد) فعدد منها :

١ - إنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية .

٢ - إنها سريعة التمثيل في البيئة .

٣ - إنها تتحول سريعاً إلى طاقة بدنية .

٤ - إنها مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة .

٥ - إنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين .

٦ - إنها مهدئة ملطفة .

٧ - إنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلاً عن سهولة الحصول عليها .

ومضى الطبيب في بيان خصائص (الشهد) النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار ولم يذكر في سائر الفصول دواء (طبيياً) آخر له مثل هذه الخصائص أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل .

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعى فذكر كلمة (زويمر) عن الآية القرآنية ووجدتها مثلاً أصلح من كل مثال لإبراز (عقلية البشر) بما طوته من عيوب الزيغ والتعصب والمغالطة مع عيوب الغباوة والعمى في كثير من الأحيان ولاح لى أن نصيب (زويمر) من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته في ميدان التبشير إلا أنها عدة لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أو في منها لو أنه أراد تثبيت المسلمين على عقائد الاسلام (انتهى كلامه) .

ولا يسعنا بعد الكلام عن هذه المشاهد القرآنية الكريمة إلا أن نجمع هذه الآيات التى سبق الكلام عنها الآن لتكون صورة متكاملة أمام القارئ قال جل شأنه ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

صدقت يا إله العالمين

لقد أفضنا في الحديث عن هذه الآيات لما اشتملت عليه من أدلة قطعية تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد وتقطع الطريق على كل أفك أئيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين .

فليسأل الإنسان نفسه : أهناك نظام يقوم بلا منظم أو تدبير ينشأ عن غير عناية ؟ وهل تستطيع الطبعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد نظاماً أو تشيد كوناً متكاملأً منسقاً كل ما فيه ينطق بالحكمة وينفى العبث . سبحانك ربى أنت خالق كل شيء وأنت على كل شيء قدير .
يا من لا تُدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار وهو الواحد القهار .

من آيات الله اليبينات ونعمه

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٥﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾

المفردات : ﴿أرزل العمر﴾ : أردته وأخسه ، ﴿والحفدة﴾ : أولاد الأولاد على ما روى عن الحسن والأزهري وواحدهم حafd ، ﴿ككتبة وكاتب﴾ : من الحفد وهو الحفة في الخدمة والعمل يقال منه حفد يحفد وحفودا وحفد إذا أسرع كما جاء في القنوت (وإليك نسعى ونحفد)
﴿والطيبات﴾ : اللذائذ والمراد بالباطل عبادة الأصنام .

المناسبة

بعد أن ذكر عجائب أحوال الحيوان وما فيها من نعمة للإنسان كالأنعام التي يأخذ من ضرعها اللبن والنحل التي يشتار منها العسل ، ويؤخذ منها الشمع للإضاءة ، أردف ذلك ببيان أحوال الناس فذكر مراتب أعمارهم ، وأن منهم من يموت وهو صغير ومنهم من يعمر حتى يصل إلى أرذل العمر ويصير نساءً لا يحفظ شيئاً ، وفي ذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانيته ثم ثنى بذكر أعمال أخرى لهم وهي تفضيل بعضهم على بعض في الرزق .

فقد يُرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهماً يفنى عمره في طلب القليل من الدنيا وقل أن يتيسر له
بينما يرى أقل الناس علماً وفهماً تتفتح له أبواب السماء ويأتيه الرزق من كل صوب وذلك دليل على أن
الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم كما قال: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

وقال الشافعي :

ومن الدليل على القضاء كونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ثم ثلث بذكر نعمة ثلاثة عليهم إذ جعل لهم أزواجاً من جنسهم وجعل لهم من هذه الأزواج بنين
وحفدة ورزقهم الطعومات الطيبة من النبات كالثمار والحبوب والأشربة أو من الحيوان على اختلاف
أنواعها .

قوله تعالى : ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً
إن الله عليم قدير﴾ :

فهذا النص الكريم ينبه ويرشد بعد آيات النعم إلى أنه لا بد من المصير المحتوم للقاء الله رب العالمين ،
لذلك فإننا نرى الكتاب العزيز في مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى .

اسمع هذا المشهد القرآني الذي يقول الله عز وجل فيه ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع
سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها
والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾^(١) .

وبعد هذا نبه إلى المصير المحتوم الذي لا بد من أن نلاقه جميعاً فقال عز شأنه : ﴿فإذا جاءت
الطامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾^(٢) .

ثم انتقل معي إلى مشهد قرآني آخر يزيد المعنى تأكيداً حيث يقول الله جل شأنه : ﴿فلينظر
الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنا وقضبا * وزيتوناً
ونخلاً * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم﴾^(٣) .

ثم نبه بعد ذلك إلى ما سنلاقه جميعاً فيقول جل شأنه : ﴿فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من
أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبه وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾^(٤) .

وهذا أيها القارئ الكريم يتجلى أمامك أن الدنيا مهما أقبلت فهي مولية وأن الحياة مهما طالت
فإنها منتهية فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ﴿والله
خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير﴾ .

فإنه تعالى يخبر في هذه الآية الكريمة عن تصرفه في عبادته ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ، ثم

(١) الآيات ٢٧ - ٣٣ من سورة النازعات .

(٢) الآيات ٣٤ ، ٣٥ من سورة النازعات .

(٣) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس .

(٤) الآيات ٣٣ - ٣٧ من سورة عبس .

بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلق ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾^(١) .

وقد روى عن الإمام على كرم الله وجهه : إن أزدل العمر خمس وسبعون سنة. وفي هذه السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم .

ولهذا قال : ﴿ لكى لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ : أى بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً .
روى البخارى فى تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : « أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأزدل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات »^(٢) .

بعد ما قامت الأدلة الكونية تؤكد وحدانية الخالق ، جاءت الآية السابقة : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ : لتبين أن المصير فى النهاية إلى الله الخالق العظيم .

ثم عاد النظم الكريم يحدثنا عن القضية الأصلية الأساسية التى تدور حولها الأدلة ، وهى قضية التوحيد ، فجاء القرآن بدليل يخاطب العقل خطاباً منطقياً سديداً يخاطب الذين زعموا أن الله شركاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فقال جل شأنه : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾ .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذه الآية عن جهل الضالين المضلين المشركين المارقين ، وبين لهم بشاعة كفرهم فيما زعموه له من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون فى تليبتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فقال تعالى منكرأ عليهم أنتم لا ترضون أن تتساووا مع عبيدكم فيما رزقناكم . وكلمة (الرزق) هنا كلمة شاملة عامة تشمل كل ما يوجد الله به على الانسان وما يهبه إياه من مطعم ومشرب وزوجة ومال ومسكن ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم .

كما قال فى الآية الأخرى التى تطابق هذا المعنى فى إيضاح قضية الوحدانية توضيحاً لاليس فيه ولا غموض وهذه الآية فى سورة (الروم) حيث يقول جل شأنه : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيماكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾^(٣) .

(١) الآية ٥٤ من سورة الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٧ . ومسلم فى الذكر : ٥١ ، ٥٢ ، ٧٣ . وابو داود فى الوتر :

٣٢ . والترمذى فى الدعوات : ٧٠ ، ١٠٩ ، ١١٣ . والنسائى فى الاستعاذة : ٣ ، ٥ - ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٤٥ . والامام أحمد فى

١ : ٢٢ ، ٥٤ ، ٣ : ١١٣ ، ١٥٩ ، ٢٣٥ . وفى ٤ : ٣٧١ .

(٣) الآية ٢٨ من سورة الروم

وقد بلغ من روعة القرآن وعلو طبقته أن آية (الروم) هذه جاءت عقب عقد فريد انتظم عديداً من الأدلة على الوحدانية ، مثله في ذلك كمثل آية النحل التي نحن بصدد الحديث عنها .

لقد سبق آية (الروم) السالفة الذكر قوله تعالى : ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويجيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من في السموات والأرض كل له قانتون * وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (١) .

ثم بعد بيان هذه الأدلة المضيئة بنور الوحدانية ، تأتي الآية الكريمة لتخاطب كل من له عقل وإدراك ، فتقول : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ .

إذا كنت أيها العبد المخلوق لا ترضى لعبد تملكه يمينك أن يتساوى معك في رزقك ، فكيف ترضى ذلك للخالق البارئ المصور ؟ وكيف تدعى زوراً وبهتاناً أن معه من عباده من يساويه في الألوهية والعظمة ؟

سبحانك ربى يا من تقول في الحديث الجليل : [الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى] (٢) .

نعم يارب العزة ﴿ فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ﴾ يقول ابن عباس رضى الله عنه في هذه الآية الكريمة : لم يكونوا يشركوا عبيدهم في أموالهم فكيف يشركون عبيدى معى في سلطانى ؟ فذلك قوله تعالى : ﴿ أفبئمة الله يجحدون ﴾ .

ويقول ابن عباس أيضاً : فكيف ترضون لى ما لا ترضونه لأنفسكم ؟

وقوله تعالى : ﴿ أفبئمة الله يجحدون ﴾ : أى أنهم جحدوا نعمة الله فأشركوا معه غيره ، وكان

الأجدر بهم أن يشكروا هذه النعمة بعقيدة التوحيد .

ويواصل النظم الكريم سيره المبارك فيذكر لنا نعمة هى من جليل النعم التى امتن الله بها على

عباده ، فيقول جل شأنه : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين

(١) الآيات ١٩ - ٢٧ من سورة الروم .

(٢) أخرجه ابوداود فى اللباس : ٢٥ . ومسلم فى البر : ١٣٦ . وابن ماجه فى الزهد : ١٦ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ،

٤٢٧ ، ٤٤٢ . وفى ٦ : ١٩ .

وحفدة ورزقكم من الطيبات أقبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴿٧٦﴾ :

أى منطق وأى عقل سليم يعين النظر فى هذه الآفة ثم لا يلقى باللوم الشديء على كل من يؤمن بالباطل ، ويكفر ببنعمة الله ؟

فالله جل شأنه يخبر فى هذه الآفة الكريمة أن من نعمة على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وأشكالهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته تعالى أنه خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر جَلَّ جلاله أنه جعل من الأزواج : البنين والحفدة وهم أولاد البنين .

قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد .

قال شعبة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿٧٦﴾ وبنين وحفدة ﴿٧٦﴾ : وهم الولء وولد الولء .

وفى قوله تعالى ﴿٧٦﴾ ورزقكم من الطيبات ﴿٧٦﴾ : إيجاز بليغ ، وكلمة جامعة ، فالطيبات : كل ما تطيب به النفس من النعم فهذه الكلمة الكريمة شاملة للمواهب الإلهية التى ينعم بها الانسان وواجبه شكر المنعم عليها .

إذا كنت فى نعمة فارعها

وحافظ عليها بشكر الإله

يا ابن آدم :

يامن بدنياه اشتغل

الموت يأتى بغتة

وبعد هذه النعم كلها يأتى الاستفهام الإنكارى ﴿٧٦﴾ أقبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴿٧٦﴾ .

من أدلة التوحيد

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٦﴾
 فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
 مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ
 يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ
 لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
 يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

المفردات : رزق السماء : المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التي تخرج منها .
﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ : أى لا تجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾^(١) .
﴿ وضرب المثل للشئ ﴾ : ذكر الشبيه له ليوضح حاله المهمة ويزيل ما عرض من الشك في أمره .
﴿ والبكم ﴾ : الخرس وهو إما ناشئ من صمم خلقي وإما لسبب عارض ولا علة في أذنيه فهو يسمع ولكن لسانه معتقل لا ينطق الكلام فكل من ولد غير سميع فهو أبكم لأن الكلام بعد السماع ولا سماع له وليس كل أبكم يكون أصم صمماً طبيعياً فإن بعض البكم لا يكونون صمماً .
﴿ والكل ﴾ : الغليظ الثقيل من قوله كلت السكين إذا غلظت شفرتها فلم تقطع . وكل عن الأمر : ثقل عليه فلم يستطيع عمله بوجهه : أى يرسله في وجه معين من الطريق يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه .
﴿ على صراط مستقيم ﴾ أى طريق عادل غير جائر .

المناسبة

بعد أن بين عزت قدرته دلائل التوحيد البيان الشافي فيما سلف ، أردف ذلك الرد على عابدى الأوثان والأصنام ، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إنبطال عبادتها :
أولهما : العبد المملوك الذى لا يقدر على شئ والحر الكريم الغنى الكثير الإنفاق سراً وجهرأ .
ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان في نظر العقل سواء مع تساويهما في الخلق والصورة البشرية .
وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغي أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على النفع والضر .
والثانى : مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقيل على سيده وثنائهما حوّل قلب ناطق كامل القدرة أيستويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما في البشرية ؟
وإذا فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين في الألوهية والعبادة ؟
قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد بن أبى العاص :
كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة ، وكان المولى يتباه عن الصدقة والمعروف .
قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾ :

(١) الآية ٢٢ من سورة البقرة .

وهذا منتهى السفه والطيش والحمق أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً ، ويتركوا عبادة من بيده الملك وإليه يرجع الأمر كله ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير * يأياها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ فلا تضرّبوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ : هو كقوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾^(٢) .

فقد ثبت أن الله واحد أحد ، فلا يليق بعاقل أن يضرب له الأمثال ، ويجعل له الأشباه والأنداد ، لأن ما سوى الله تعالى إنما هو مخلوق له ، فكيف يكون المخلوق شبيهاً بالخالق ؟ ! والضلال كله أن يجب الناس خمساً وينسون خمساً : يحبون المخلوق وينسون الخالق ، ويحبون المال وينسون الحساب ، ويحبون القصور وينسون القبور ، ويحبون الدنيا وينسون الآخرة ، ويحبون الذنوب وينسون التوبة .

ابن آدم :

والناس حولك يضحكون سروراً
فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً

أنت الذى ولدتك أمك باكياً
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا

﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ :

ولما كانت قضية الألوهية من أعظم القضايا بل هى أعظمها جميعاً فإن القرآن الكريم أورد حشداً كبيراً من الأدلة وأراد أن يزيد بها إيضاحاً وتقريراً فضرب مثلين ، إذ بالمثال يتضح المقال قال جل شأنه : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هل يستتون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ .

ومعنى المثل الأول : أنه تعالى ضرب مثلاً لكل ما يعبد من دون الله فى أى زمان أو مكان ، والله تعالى هو الواحد الخالق البارئ ، فاطر السموات والأرض واهب الوجود ، والمنعم بكل شيء موجود : ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً مملوكاً وهو لا يقدر على شيء أبداً فلا ينفع نفسه ولا غيره ، وحرراً رزقناه منا رزقاً حسناً وأعطيناه مالاً وفيراً فهو ينفق من المال سرّاً وجهراً فى جهات الخير والبر : هل يستوى هذا وذاك ؟ أبداً ، ومن ذا الذى يسوى بين غير الله من المخلوقات وبين الله القدير جل جلاله وتباركت

(٢) الآية ٢٢ من سورة البقرة

(١) الآيات ١٣ - ١٧ من سورة فاطر .

أسماءه ، صاحب النعم وله ملك السماوات والأرض ، يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء .
الحمد لله والثناء الجميل والشكر الجزيل لله الواحد القهار المنعم بجلائل النعم والمتفضل بدقائقها
لامانع لما أعطى ولا معطى لما منع هو المستحق وحده الحمد والثناء لا إله إلا هو .
﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ : أى لا يعلمون الحق فيتبعونه ويعرفون المنعم عليهم بالنعم الجليلة
فيخصونه وحده بالتقديس والتنزيه .

ومعنى المثل الثانى : ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً ثانياً لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم
الدينية والدنيوية وللمعبودات التى لم تسبق لها الحياة وهى لا تضر ولا تنفع فقال :

﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم ﴾ : أى عُمى مفحم مقطوع اللسان أخرس لا يقدر على
شئ أبداً ، لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ، ﴿ كل على مولاه ﴾ : أى يقوم بحاجته ولا يؤدى عمله
لنفسه فهو ثقل على قرابته هذا الأبكم الذى لا يقدر على تحصيل شئ أبداً ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه
إلى أى جهة أخرى لا يأتى بخير قط لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له .

هل يستوى هذا الذى وصفناه بهذه الأوصاف والذى يأمر بالعدل ويسير بالعدل ويحكم بالعدل
ويأمر بالعدل وينطق ويفهم ويتصرف على أتم وجه وأكملة ، وهو على صراط مستقيم ، ودين قويم ،
وسيرة صالحة ، لإفراط فيها ولا تفريط .

والنتيجة : نستطيع أن نستنتج من هذين المثالين السابقين أن غير الله لا يمكن بحال من الأحوال أن
يتساوى مع الله ، فالله واجب الوجود لذاته ، وغير الله حادث بعد العدم ، والله واجب له كل كمال
يليق بذاته ، وغير الله لا يخلو من نقص ، والله تعالى واجب له القدم فاستحاله عليه الحدوث ، وواجب له
البقاء فاستحاله عليه الفناء ، وواجب له القيام بالنفس فاستحاله فى حقه الاحتياج إلى غيره ، ووجبت له
المخالفة للحوادث فاستحاله فى حقه المماثلة لغيره ، وواجب له الوحدانية فاستحاله فى حقه الشرك
والتعدد ، ووجبت له القدرة فاستحاله عليه العجز ، ووجبت له الإرادة فاستحاله فى حقه القهر والجبر ،
ووجب له العلم فاستحاله فى حقه الجهل ، ووجبت له الحياة فاستحاله فى حقه الموت ، ووجب له السمع
والبصر فاستحاله فى حقه الصمم والعمى ، ووجب له الكلام النفسى فاستحاله فى حقه البكم .

وغاية الأمر أن كالات الله لا تتناهى . لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد ﴿ قل هو الله أحد * الله
الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (١) .

مع القدرة الباهرة والعلم المحيط

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

المفردات: ﴿ الساعة ﴾ : الوقت الذي تقوم فيه القيامة . سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة ما فيموت الخلق بصيحة واحدة ، ﴿ لمح البصر ﴾ : رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، ﴿ والأفئدة ﴾ : واحدها فؤاد : وهى القلوب التى هيأها الله للفهم وإصلاح البدن ، ﴿ والجو ﴾ : الهواء بين الأرض والسماء .

المناسبة

بعد أن بين الله من الأدلة القاطعة ما يدل دلالة جازمة على أنه الواحد ، أردف ذلك بما يدل على كمال علمه ، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له وما يدل على كمال قدرته ، فذكر أن قيام الساعة فى السرعة كلمح البصر أو أقرب ، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده ، وأنه الفاعل المختار ، فذكر منها خلق الإنسان فى أطواره المختلفة ثم الطير المسخر بين السماء والأرض وكيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه إلا هو بكامل قدرته .

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم من أدلة التوحيد إلى أدلة القدرة الباهرة والعلم المحيط ، فيقول جل شأنه : ﴿ ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ :

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا النص الكريم عن كمال علمه وعظيم قدرته على الأشياء ، فهو تعالى يعلم غيب السماوات والأرض ، وإنه مختص بعلم الغيب ، لا شريك له ، فلا إطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلع الله تعالى من يشاء على ما يشاء .

قال جل شأنه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول ﴾ ^(١) .

أما عن القدرة : فأمره تعالى بالكاف والنون : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون ﴾ ^(٢) ، ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ^(٣) . أى فيكون ما يريد سبحانه كطرف العين .

(٣) الآية ٥٠ من سورة القمر .

(١) الأيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل .

وهكذا قال هنا : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

وكما قال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

عالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم ، وقدرة الله الذي أنزل القرآن ، وعلى صدق سيدنا محمد ﷺ الذي بعث بالقرآن ، فإن الأطوار التي يمر الانسان بها في الرحم عديدة ومختلفة ، يقول سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٢) .

فيم خلقتنا ؟

خلقتنا في أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٣) .

فما هو الرحم ؟

يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلي كثري الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ، ثم يذكرون أبعاده فيقولون : إن طوله يبلغ حوالي سبعة من السنتيمترات ، وعرضه يبلغ حوالي خمسة من السنتيمترات ، وسمكه يبلغ حوالي اثنين من السنتيمترات .

والقرآن الكريم يسمي هذا الرحم قراراً مكيناً : حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقد رنا فنعم القادرون ﴾ (٤) .

هل خلقنا وصورنا في أضواء أو أشعة ؟ كلا بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ (٥) . فلينظر الإنسان مم خلق ؟

م خلقتنا : من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب ، لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر ، وتبلغ سرعته في الطريق إلى الرحم : نصف مليمتر في الثانية الواحدة ، اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الانسان .

فكيف كان حالنا في عالم الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم ، وجعل درجة

(١) الآية ٢٨ من سورة لقمان .

(٢) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ٦ من سورة آل عمران .

(٤) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة المرسلات .

(٥) الآية ٦ من سورة الزمر .

الحرارة في الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاءً ، وكان وزن الانسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو في الأرحام - خمسة أرتال وعندما بلغ تسعة أشهر : كان وزنه سبعة أرتال أو ثمانية ، فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا ، وهو طريق ضيق دقيق ؟

ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تنقلص عضلاته ، حيث أصبح الانسان ضيفاً ثقيلاً عليه ، فتقلصت العضلات فعبير الانسان هذا المضيق الدقيق .

والقرآن يجمع تلك الحقائق في آيات معجزة فيقول : ﴿ من أى شيء خلقه • من نطفة خلقه فقدره • ثم السبيل يسره ﴾ (١) .

فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟

يقول عز وجل ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ :

وبنظرة فاحصة في قوله تعالى : ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ : يفيد نفى العلم بالكلية .

إذ يقول علماء اللغة : إن النكرة في سياق النفي : تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ، ولتقابل هذا بالشكر ، والشكر لله : أن تسخر نعم الله في طاعته وأن لا تستعملها في معصيته .

قال موسى عليه السلام لربه : (يارب : كيف أشكرك ! قال له يا موسى : تذكرني ولا تنساني :

إنك إن ذكرتني : شكرتني وإن نسيتني كفرتني) (٢) .

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (٣) .

وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره ، وعجز في يديه ، وهو يردد بلسانه قائلاً (الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه) فقال له الرجل : فمن أى شيء عافاك قال له : (وهب لي قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً) .

ثم أنشد يقول :

وحمدت الله ربى إذ هدانى إلى الإسلام والدين الحنيف

فيذكره لسانى كل وقت ويعرفه فؤادى باللطيف

قوله تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك

لآيات لقوم يؤمنون ﴾ :

يقول المفسرون في هذه الآية الكريمة : بينه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحين في جو السماء ما يمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى ، وجعل فيها

(٣) الآية ١٥٢ من سورة البقرة .

(١) الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة عبس .

(٢) أخرجه الترمذى في القيامة : ٢٣ .

قوى تفعل ذلك ، وسخر لها الهواء يحملها ويسيرها ، كما قال تعالى في سورة الملك ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾ (١) .

واعلم يا أخى : أن عالم الطير فيه من حقائق الأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير ، فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار ، كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته في هذه الدنيا التي يعيش فيها ويطير في أجوائها ؟

يقول علماء الكون : أن الجهاز الهضمي للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمي في الحيوانات ، مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ، ويوضح جميل الصنع ، إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذي يستخدم في التغذية ، بدلا من الفم والشفيتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يتلعب الطير غذاءه بلا مضغ .

وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها ، فالطيور الجارحة - كالبوم والحدأة ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف ، وذلك لتمزيق اللحوم .

بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، لتلائم البحث عن الغذاء في الطين تحت الماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التي تلتقط الحب من الأرض ، فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .

بينما منقار البجعة - مثلاً - طويل طولاً ملحوظاً ، ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد ، إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسي .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب ، أعد باتقان للبحث عن الحشرات والديدان ، والتي غالباً ماتكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

أما باقي الجهاز الهضمي للطيور فهو غريب عجيب ، فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام ، ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى : من الذى هياً لعالم الطير هذا النظام ، وأرشدته إلى أن يسلك سبل الحياة ، كما قال سيد المرسلين ﷺ : (لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو خصاصاً وتروح بطاناً) (٢) .

هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والإتقان الحكيم : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال

(١) الآية ١٩ من سورة الملك .

(٢) أخرجه الترمذى في الزهد : ٣٣ . وابن ماجه في الزهد : ١٤ . والامام أحمد في ١ : ٣٠ ، ٥٢ .

علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولى النهي ﴿٨١﴾ .

من النعم الإلهية .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٤﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

المفرادات : ﴿ سَكَنًا ﴾ : أى مسكناً ، ﴿ والظعن ﴾ : بالسكون والفتح السير في البادية لنجعه أو طلب ماء أو مرتع . ﴿ الأصواف ﴾ : للضأن ، ﴿ والأوبار ﴾ : للابل ، ﴿ والأشعار ﴾ : للمعز ، ﴿ والأثاث ﴾ : متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ولا واحد له من لفظه ، ﴿ والمتاع ﴾ : ما يتمتع ويتنفع به في المتجر والمعاش ، ﴿ إلى حين ﴾ : أى إلى انقضاء آجالكم ، ﴿ والظلال ﴾ : ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، ﴿ والأكنان ﴾ : واحدها كين وهو الغار ونحوه في الجبل ، ﴿ والسرابيل ﴾ : واحدها سربال : وهو القميص من القطن والكتان والصوف وغيرها وسرابيل الحرب الجواشن والدروع ، ﴿ والبأس ﴾ : الشدة ، ويراد به هنا الحرب .

المناسبة

بعد أن أقام سبحانه الأدلة على توحيده ، قفى على ذلك بذكر ما أنعم به على عباده ، فجعل لهم بيوتاً يأوون إليها وتكون سكوناً لهم ، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها في أسفارهم ، ويجعلونها خياماً في السفر والحضر ، وجعل لهم في الجبال الحصون والمعقل ، وجعل لهم الثياب التي تقمهم الحر ، والدروع والجواشن من الحديد لتقى بعضهم أذى بعض في الحرب .

وقصارى هذا أنه امتنَّ على عباده ، فبدأ بما يخص المقيمين بقوله : ﴿ جعل لكم من بيوتكم سكوناً ﴾ : ثم بما يخص المسافرين منهم ممن لهم قدرة على ضرب الخيام بقوله : ﴿ وجعل لكم من جلود

الأنعام بيوتاً ﴿﴾ : ثم بمن لاقدره لهم على ذلك ولا يؤويهم إلا الظلال بقوله : ﴿﴾ جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴿﴾ : ثم بما لا بد منه لكل أحد بقوله : ﴿﴾ وجعل لكم سراويل ﴿﴾ : ثم بما لا غنى عنه في الحروب بقوله : ﴿﴾ وسراويل تقيكم بأسكم ﴿﴾ .

وتسير بنا الآيات في زحفها المبارك ، حيث تذكر لنا نعماً من نوع آخر ، غير الذى قدمته على مائدة الكرم الألهى ، فيقول سبحانه : ﴿﴾ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم .. ﴿﴾ :

يخبر مولانا تبارك وتعالى في هذا المشهد الرائع عن تمام نعمه على عباده ، بما جعل لهم من البيوت ، التى هى سكن لهم ، يأوون إليها ويستترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها في أسفارهم ، ليضربوها لهم في إقامتهم ، في السفر والحضر. ولهذا قال : ﴿﴾ تستخفونها يوم ظعنكم ﴿﴾ : أى في أسفاركم ﴿﴾ ويوم إقامتكم ﴿﴾ :

﴿﴾ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴿﴾ : ومن ﴿﴾ أصوافها ﴿﴾ : أى من الغنم ، ﴿﴾ وأوبارها ﴿﴾ : أى الابل ، ﴿﴾ وأشعارها ﴿﴾ : أى المعز ، والضمير عائد على الأنعام .

﴿﴾ أثاثا ﴿﴾ : أى تتخذون منه أثاثا ، بمعنى كل ما ينتفع به من أثاث البيت ، وهو أعم من الممال والثياب ، إذ أنه قد يكون مصدراً للريح في التجارة ، وتصنع منه البسط والسجاد .

وقوله تعالى : ﴿﴾ ومتاعا إلى حين ﴿﴾ : أى إلى أجل مسمى ، ووقت معلوم .

وقوله تعالى : ﴿﴾ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴿﴾ : أى مما خلق من الأنعام والبيوت والجبال والأشجار ظلالاً ، تستظلون بها من وهج الشمس وزمهير البرد .

﴿﴾ وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴿﴾ : ومغارات تأوون إليها من العدو ، أو خوف الشمس ، أو زحمة الناس ﴿﴾ وجعل لكم سراويل تقيكم الحر ﴿﴾ : من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿﴾ وسراويل تقيكم بأسكم ﴿﴾ : كالدرع من الحديد المصفح ، وغير ذلك مما يستعمل في الحرب .

وقوله تعالى : ﴿﴾ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴿﴾ : أى هكذا جعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون لكم عوناً على طاعته وعبادته .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه السورة التى نحن بصدد الحديث عنها - وهى سورة النحل - تسمى أيضاً سورة « النعم » وذلك لما اشتملت عليه من الآلاء العظيمة والنعم الكريمة .

قوله تعالى : ﴿﴾ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴿﴾ : هو كقوله جل شأنه ﴿﴾ ما على الرسول إلا البلاغ ﴿﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿﴾ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴿﴾ (٢) ، ﴿﴾ لست عليهم بمسيطر ﴿﴾ (٣) ، ﴿﴾ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴿﴾ (٤) .

(٣) الآية ٢٢ من سورة الفاشية .

(٤) الآية ٤٥ من سورة ق .

(١) الآية ٩٩ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٢٠ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ : كقوله جل شأنه : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (١) .

فاللهم ارزقنا شكر نعمتك ، فإن شكرها واجب ، وتوفيقك لنا لشكر نعمتك نعمة ، يجب أن نشكرها .

لمحة قرآنية

إنما أردنا بتلك اللمحة أن نوضح نقطتين هامتين يلاحظهما القارئ لكتاب الله العزيز بعين البصيرة .

فهذه السورة الكريمة اشتملت على مشاهد عديدة من النعم العظمى ، وقد لاحظنا أنها كلما ذكرت جملة من النعم : عقب عليها بتعقيب يظهر طبائع الإنسان ، الذي لا يقابل هذه النعم بما يليق من شكر الإله الواحد ، وذلك كما جاء في سورة الرحمن ، عقب كل نعمة ب ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وفي سورة « النحل » جاء عقب المشهد الأول من النعم قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ :

ثم نطق القرآن الكريم بقوة وصراحة فقال : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ ، ثم بعد ذلك عرضت السورة مشهداً آخر من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ : إلى قوله ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ﴾ .

ثم عقب على هذا المشهد من النعم بما يظهر طبائع الناس من إعراضهم عن الشكر ، فقال سبحانه : ﴿ أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ﴾

ثم استعرضت السورة مشهداً ثالثاً من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً ﴾ : إلى قوله : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ .

ثم عقب على هذا المشهد الكريم بما يظهر طبائع الناس من انصرافهم عن شكر المنعم ، فقال سبحانه ﴿ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ :

وقد ذكروا أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله ، فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ : فقال الأعرابي : نعم . قال : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ﴾ : الآية ، قال الأعرابي : نعم . ثم قرأ عليه : وكل ذلك يقول الأعرابي : نعم . حتى بلغ : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ : فولى الأعرابي ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ :

تلك ملاحظة أولى :

وقد أظهرت لنا موقف الإنسان من نعم ربه ، وكان ينبغي عليه أن يكون مُقِرّاً بالفضل، عارفاً بما يكافئ جزيل النعم .

وقد اختتمت هذه السورة بموقفين كريمين ، لنبيين عظيمين ، وقفنا موقف الشكر والصبر : نبي الله إبراهيم ، نبي الله محمد ، عليهما الصلاة والسلام .

يقول القرآن في حق إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ (١) .

ويقول في حق خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون ﴾ (٢) .

فما أجمل الشكر عند الرخاء ، والصبر عند الضراء .

وكما قال سيد المرسلين محمد ﷺ (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله هو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) (٣) .
أما الملاحظة الثانية :

فقد سبق أن قررنا أن القرآن الكريم - في مواضع كثيرة - بعد ما يذكر نعم الله في الدنيا على عباده ، ينبه عقولهم ، ويشد أفتدتهم إلى ما بعد الدنيا من البعث والجزاء ، وقد سقنا الشواهد الدالة على ذلك وهذا مشهد آخر من تلك المشاهد .

فالله يقول - بعد ما ذكر النعم الجزيلة والآلاء الجليلة - أخذ بأيدينا ليوثقنا في عرصات القيامة وساحات الحساب ، فقال سبحانه ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون * وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون * وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون * الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ .

(١) الآيات ١٢٠ - ١٢٢ من سورة النحل . (٢) الآية ١٢٧ من سورة النحل .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد : ٦٤ . والامام أحمد في ٤ : ٣٢٢ ، ٣٢٣ . وفي ٦ : ١٥ .

من مشاهد القيامة

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

المفردات : ﴿ الأمة ﴾ : الجيل من الناس ، ﴿ وشهيد كل أمة ﴾ : نبيها ، ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ : أى إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ، ويقال استعته وأعتبه : إذا رضى عنه ، قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال وسناكرة الموجدة ، وعاتبه معاتبه وعتابا وأعتبه : سره بعد ماساءه ، ﴿ ينظرون ﴾ : أى يمهلون ويؤخرون ، ﴿ والشركاء ﴾ : الأصنام والأوثان والشياطين والملائكة ، ﴿ وندعو ﴾ : نعبد ، ﴿ والسلم ﴾ : الاستسلام والانقياد ، ﴿ وضل ﴾ : ضاع وبطل والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، ﴿ وتبينانا ﴾ : أى بيانا لأمر الدين إما نصا فيها أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر .

المناسبة

وهكذا - وجدنا أنفسنا قد انتقلنا من بطون الأمهات ، وقمنا بتمثيل أدوارنا على مسرح الحياة ، وتمتعنا بنعم الله .. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى هذا المشهد القرآنى الذى يأخذ بالألباب ، ويجعل القارىء يستولى عليه العجب حيث يجد هذه الصورة الرهيبة فى عرصات القيامة : الظالمون يرون العذاب ، فلا يخفف عنهم ، والمشركون يرون الشركاء ، فيلزمونهم الحجة ، والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله يضاعف لهم العذاب .

وكل نبي يشهد على أمته بأنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، والكافرون قد انقطعت أعمارهم ،

ويطلت حججهم ، فلا يؤذن لهم ، كما قال تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ : أى لا يطلب منهم العتبي - أى الرضا .

إذ أنه لا فائدة من العتاب ، مع العزم على السخط وعدم الرضا * وهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، فقد فات زمنه في الدنيا ، وذهبت السكره ، وحلت الفكرة ، وانفض السوق ، فربح فيه الراجحون وخسر فيه الخاسرون .

فإذا كانت الدنيا دار عمل ولا حساب ، فالآخرة دار حساب ولا عمل ، ويومئذ لا ينفع التمني ، فلا يقبل من أحدهم أن يقول : ﴿ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ﴾^(٢) ، ﴿ يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابه * ياليتها كانت القاضية ﴾^(٣) ، ﴿ ياليتنى كنت ترابا ﴾^(٤) ، ﴿ ياليتنى قدمت لحياتي ﴾^(٥) ، ﴿ ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾^(٦) .

عندئذ يقول لهم : ﴿ أولم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكروا وجاءكم النذير . فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾^(٧) .

فبادر يا أخى بالرجوع إلى الملك الديان قبل فوات الأوان ، حيث لا ينفع الندم .
عجوز تمنى أن تكون صبية وقد نحل الجنيان واحد ودب الظهر
فسارت إلى العطار تبغى شبابها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

قوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ﴾ : يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى .

﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ : أى في الاعتذار ، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾^(٨) ، فلماذا قال سبحانه : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ :

أى لا يغتر عنهم ساعة ولا هم يؤخرون عن تنفيذ حكم الله فيهم ، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾^(٩) ، ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾^(١٠) .

(١) الآيات ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .
(٢) الآيات ٢٧ ، ٢٨ من سورة الفرقان .
(٣) الآيات ٢٥ - ٢٧ من سورة الحاقة .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النبأ .
(٥) الآية ٢٤ من سورة الفجر .
(٦) الآية ٢٧ من سورة الانعام .
(٧) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٨) الآيات ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .
(٩) الآية ٥٣ من سورة الكهف .
(١٠) الآية ٤٥ من سورة الشورى .

وكما قال تعالى : ﴿ وَعنت الوجوه للحي القيوم ﴾^(١) أى خضعت ، وذلت واستكانت ، وأنابت ، واستسلمت : ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ : أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه ، افتراء على الله فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير .

وبعد أن تمت المحاكمة : أصدرت محكمة العدل الإلهية الكبرى حكمها المبرم الذى لا يقبل استئنافاً ولا نقضاً ، فقال سبحانه : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾^(٢) أى عذاباً على كفرهم ، وعذاباً على صددهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى : ﴿ وهم يهون عنه ويتأون عنه ﴾^(٣) أى يهون الناس عن اتباعه ، ويتعدون هم عنه أيضاً ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى درجاتهم - فإن الجنة درجات ، والنار درجات : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ .

اختتم الله تبارك وتعالى هذا المشهد المهيّب بتلك الآية الكريمة ، هذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة « النساء » فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد * وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾^(٥) فقال له رسول الله ﷺ : (حسبك * فقال ابن مسعود : فالتفتُ إليه ، فإذا عيناه تدرفان الدمع)^(٦) .

هذا خطاب إلى صاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض المورود .. إلى رسول الله ﷺ ، الذى سيشهد على هؤلاء جميعاً ، فهو خاتم الأنبياء ، والرسول ، الصادق الأمين وكتابه هو المهيمن على جميع الكتب ، الذى جعله الله هدى ورحمة للعالمين : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم * ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾^(٧) ، ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس * ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾^(٨) .

فكيف كان القرآن تبيانا لكل شىء ؟

يجيب على هذا السؤال صاحب « الكشاف » رحمه الله فيقول :

- (١) الآية ١١١ من سورة طه .
 (٢) الآية ٨٨ من سورة النحل .
 (٣) الآية ٢٦ من سورة الأنعام .
 (٤) الآية ٣٨ من سورة الأعراف .
 (٥) الآية ٤١ من سورة النساء .
 (٦) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة : ٢٥ ، وفى الجهاد : ٧ . وفى تفسير سورة ٤ : ٩ . والترمذى فى الجنازات : ١٤ .
 (٧) الآية ٩ من سورة الإسراء .
 (٨) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

فإن قلت : كيف كان القرآن تبيانا لكل شيء ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصا على بعضها ، وإحالة على السنة ، حيث أمر الله فيه باتباع رسوله ﷺ وطاعته ، ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (١) ، ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (٢) .

وحتا على الإجماع في قوله : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين * نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ (٣) .

وقد رضى رسول الله ﷺ لأمته اتباع صحابته واقتفاء آثارهم في قوله ﷺ : (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) .

وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة ، والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب فمن ثم : كان القرآن تبيانا لكل شيء .

صدقت يا ذا الجلال والإكرام . يا من قلت : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (٤) وقلت : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (٥) ، وقلت : ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وصدق رسولك الكريم ، إذ يقول : « ولقد جئكم بها بيضاء نقية ، ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي » وإذ يقول : ﴿ أوتيت القرآن ومثله معه ﴾ (٦) .

فما من نظام مستقيم وعادل في هذه الدنيا إلا نظام الإسلام : ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٧) ، ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (٨) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَلَتْ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

(٧) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٨) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٩) أخرجه الامام أحمد في ٢ : ١٢٩ ، ٤ : ١٣١ .

(٤) الآية ٨٠ من سورة النساء .

(٥) الآية ٧ من سورة الحشر .

(١) الآية ٨٠ من سورة النساء .

(٢) الأيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .

(٣) الآية ١١٥ من سورة النساء .

المفردات ﴿ العدل ﴾ : لغة : المساواة في كل شيء بلا زيادة ولا نقصان فيه ، والمراد به هنا المكافأة في الخير والشر ، ﴿ والاحسان ﴾ : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بالعمو عنه ، ﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ : أى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر ، ﴿ والفحشاء ﴾ : ما قبح من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، ﴿ والمنكر ﴾ : ما تنكره العقول من دواعى القوة الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتناول على الناس ، ﴿ والبغى ﴾ : الاستعلاء على الناس والتجير عليهم بالظلم والعدوان ، ﴿ والوعظ ﴾ : التنبيه إلى الخير بالنصح والارشاد ، ﴿ والعهد ﴾ : كل ما يلتزمه الانسان بإختياره ، ويدخل فيه الوعد ، ﴿ ونقض اليمين ﴾ : الحنث فيها وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، ﴿ وتوكيدها ﴾ : توثيقها والتشديد فيها ، ﴿ كفيلاً ﴾ : أى شاهداً ورقياً ، ﴿ والغزل ﴾ : ما غزل من صوف ونحوه ، ﴿ والقوة ﴾ : الابرام والاحكام ، ﴿ والأنكاث ﴾ : واحدها نكث وهو ما نكث فتلته وينقض بعد غزله ، ﴿ والدخل ﴾ : المكر والخديعة وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل ، ويراد به أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض ، ﴿ أرى ﴾ : أى أكثر وأوفر عدداً .

بعد ما بينت الآية السابقة شهادة الرسول ﷺ ، عقبته بأن الله تعالى نزل عليه الكتاب الكريم ليكون تبياناً وتوضيحاً وسراجاً منيراً ، يضيء مسالك الحياة ، وليكون هادياً ، ورحمة ، وبشرى للمسلمين ، انتقل النظم الكريم بعد ذلك يبين لنا القواعد الأكيدة الوطيدة والأركان التى لا تهتز ولا تختل ما بقيت الدنيا ، ويوم يقوم الحساب ، فقال سبحانه : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ :

هذا النص الكريم الخالد ورد فيه الأمر بثلاثة أشياء ، والنهى عن ثلاثة أشياء .

يقول ابن مسعود رضى الله عنه : إن أجمع آية في القرآن في سورة « النحل » هى قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ : الآية .

وقد ذكروا أن الحكيم العربى ﴿ أكثم بن صيفى ﴾ : أرسل وفداً من أتباعه إلى رسول الله ﷺ يسألونه ، فالتفوا به ، فقالوا : نحن رسل أكثم بن صيفى ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال النبى ﷺ (أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله) ، قال : ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ : الآية ، قالوا : ردد علينا هذا القول . فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتوا أكثم فقالوا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه ، فوجدناه زاكى النسب ، شريفاً ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهم أكثم قال : « إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملامتها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ، ولا تكونوا فيه أذناناً » .

العدل ونتائجه ، والظلم وعواقبه

لقد أمر مولانا تبارك وتعالى بالعدل أولاً ، والإحسان ثانياً ، ثم بإيتاء ذى القربى .
والعدل هو القاعدة الأصلية فى بناء الأمم : إذ هو وضع الشئ فى موضعه ، وإقامة الميزان
بالقسط ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

ولما كان العدل هو الذى يقيم الأمم ويقومها : فإن الظلم يدبّرها ويهلكها وقد تضافرت آيات
الكتاب العزيز على ذلك .. قال جل جلاله : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾^(١) ، وقال :
﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما
ظلموا ﴾^(٣) وقال سبحانه : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة
وقصر مشيد ﴾^(٤) وقال : ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾^(٥) .
وهكذا تقوم الأمم بالعدل ، وتدمر بالظلم .

الإحسان

أما الإحسان : فهو زيادة عن العدل ، أى إذا كان العدل أساساً فى الإحسان تفضل وكرم ،
ولذا : فإن الله تعالى يقول فى شأن العدل : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾^(٦) .
ويقول فى شأن الإحسان : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾^(٧) .
ويقول فى شأن العدل : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾^(٨) .
وفى شأنه الإحسان : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾^(٩) .
ويقول فى شأن العدل : ﴿ ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾^(١٠) .
وفى شأن الإحسان : ﴿ ولئن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾^(١١) .
وقد قال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شأن
قوم على ألا تعدلوا * اعدلوا هو أقرب للتقوى * واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾^(١٢) .
فبالعدل قامت السماوات والأرض وبالعدل تقوم الحياة الهادئة المطمئنة .. إذ هو ميزان الحياة

(٧) الآية ٢٧ من سورة الشورى .
(٨) الآية ٤٠ من سورة الشورى .
(٩) الآية ٤٠ من سورة الشورى .
(١٠) الآية ٤١ من سورة الشورى .
(١١) الآية ٤٣ من سورة الشورى .
(١٢) الآية ٨ من سورة المائدة .

(١) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٢) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٤) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٥) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٦) الآية ٣٩ من سورة الشورى .

الصحيحة به تطمئن النفوس وتشرح الصدور ، ويأمن الأفراد على حقوقهم والحكام على أنفسهم وأن أى مجتمع يزول من بين أفراد العدل وتقوض أركانه هو جدير بالمهانة وحقيق بالزلة إذ يقول المعصوم صلى الله عليه فيما يرويه معاوية رضى الله عنه : (لا تقدر أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى) .

فالعاقل من حفظ نفسه من الجور وعدل مع ربه وخالفه ورازقه فعمل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، وراقبه في السر والعلن وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وعندما أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال : إن الذى أدى هذا لأمين فقال له على ابن إبي طالب كرم الله وجهه : (عفت فغفوا ولو رتعت لرتعوا) .

وهذه صورة مشرقة من حياة الفاروق رضى الله عنه ، فقد رآه رجل من الفرس ينام في ظل شجرة وهو مستغرق في نوم عميق ، دون أن يكون حوله من يحرسه ، ذلك لأنه أقام العدل فوق الفارس يعجب : أهذا أمير المؤمنين ؟ ثم قال : « حكمت فعدلت فأمنت فمنت يا عمر »

وهذا المشهد يصوره شاعر النيل فيقول :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً	بين الرعية عطلا وهو راعيا
فوق الثرى تحت ظل الروح مشتملا	ببردة كاد طول العهد يلبيا
رآه مستغرقا في نومه ، فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانها
وحسبه بملوك الفرس أن لها	سوراً من الجند والأحراس يحميها
فقال قولة حق ، أصبحت مثلاً	وأصبح الجيل بعد الجيل يرويا
أمنت لما أقمت العدل بينهمو	فمنت نوم قرير العين هانها
قد كنت أعدي أعاديها فصرت لها	بفضل ربك حصناً من أعاديها

ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : « لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم

لا تصلح لها الطريق يا عمر » ؟ !

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه أنه قال : (يوم من إمام عادل : أفضل من عبادة ستين سنة وحثّ يقام في الأرض بحقه : أزكى من مطر أربعين صباحاً)^(١) .

وروى عنه صلى الله عليه أنه قال : (أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منى مجلسا إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منى مجلسا إمام جائر)^(٢) .

إذا كانت هذه هي مكانة العدل : فإن الاحسان فيه زيادة عن العدل ، وفضل ورحمة وكرم .

(١) أخرجه النسائي في السارق : ٧ . وابن ماجة في الحدود : ٣ . والامام أحمد في ٢ : ٣٦٢ ، ٤٠٢ .

(٢) أخرجه الترمذى في الأحكام : ٤ .

وقد يأتي الإحسان بمعنى آخر كما بين ذلك الصادق الأمين محمد ﷺ في قوله : (الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١) .

فهذا معنى يرتفع بالنفس من غياهب الظلمات ، وفلول الدجى وحضيض الغبراء ، إلى قمة شماء باذخ العلياء : إذ اشتمل هذا المعنى على درجتين : درجة المشاهدة : (أن تعبد الله كأنك تراه) ودرجة المراقبة (فإن لم تكن تراه : فإنه يراك) .

وبهذا يعمل الضمير الحى عمله .. فقد رأى أبو هريرة رضى الله عنه رجلا يغش اللبن بالماء فقال له : يا هذا : « ماذا تقول إذا قيل لك يوم القيامة خلص اللبن من الماء » ؟

نعم : إن الضمير هو السلطة التى ترفع النفس إلى مراقبة ربها وخالقها والاستشعار بهيمنة سلطانه . وهل ننسى موقف هذه الفتاة التى كانت أمها تغش اللبن ونهاها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عن هذا الفعل ولكنها عادت وغشت اللبن فقالت لها ابنتها : « يأماه ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا ؟ فقالت لها : وهل يرانا أمير المؤمنين ؟ قالت لها : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن الله رب العالمين يرانا ! » وكان عمر فى هذه الأثناء يمر يتفقد الرعية فرآها تغش اللبن فقال لها : « يا عجوز ألم أنك عن غش اللبن ؟ » قالت : والله ما غششته يا أمير المؤمنين وإذا بصوت (الضمير) ينبعث من داخل هذا الكوخ : صوت ابنتها يقول لها : « يأماه أتغشين المسلمين وتحتشين فى اليمين وتكذبين على أمير المؤمنين ؟ » وأخذت هذه الكلمات طريقها إلى قلب عمر رضى الله عنه ، ولها رنين قوى أنقى من رنين الذهب ، فهل يقف عمر منها موقفاً سليباً ؟ كلا ! لقد زوجها لابنه (عاصم) فأنجبت منه فتاة اسمها (ليل) ، هذه الفتاة تزوجت عبد العزيز بن مروان فأنجبت منه خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد . العادل . الرحيم ذلك يوم مات قال رعاة الغنم فى شواهد الجبال : « اليوم مات عمر » قيل وما أدراك بموته : قالوا : « لأن الذئب قد عدا على الغنم وما عهدناه كذلك فى حياة عمر » ولما تحقق الناس من الخبر وجدوه قد مات فعلا .

وقد سئل عمر بن عبد العزيز فى حياته عن هذه الظاهرة العجيبة وهى أن الذئب أصبح يرعى الغنم كأنه كلبها وحارسها فقال لهم : « أخلصت ما بينى وبين ربي فأخلص الله ما بين الذئب والغنم » . هكذا صارت بنت بائعة اللبن : فى بيت الإمارة ، وهكذا صارت جدة لأمر المؤمنين . وهكذا يقوم الإيمان ببناء النفوس ويشيد صروحها .

صدقت يا سيدى يا رسول الله : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفى الايمان : ٣٧ . ومسلم فى الايمان : ٥٧ . وابوداود فى السنة ١٦ . والترمذى فى الايمان : ٤ . وابن ماجه فى المقدمة : ٩ . والامام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفى ٤ : ١٢٩ ،

صلة الرحم

قوله تعالى : ﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ :

أيها القارئ الكريم بإقامة العدل تحيا النفوس ، وبالإحسان يرتفع شأنها ، وإيتاء ذى القربى يعم الإخاء والرحمة ، فليس هناك مكانة تعدل صلة الرحم وأول الأرحام في (كشف) الصلة : الوالدان ، يليهما الأقرب فالأقرب ، ولمكانة الأرحام العظيمة عند الله فقد عُطِفَتْ على لفظ الجلالة في قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (١) .

وقد سأل عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه سيدنا رسول الله ﷺ فقال : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : (الصلاة على وقتها) قلت : ثم أى ؟ قال : (بر الوالدين) قلت : ثم أى ؟ قال : (الجهاد فى سبيل الله) (٢) .

وقد بين الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ مكانة الوالدين على أولادهما حيث يقول : « لا يجزى ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتره فيعتقه » (٣) .

وهذه توجيهات نبوية ، وإرشادات إسلامية ، تحث على صلة الرحم لما فيها من الفضائل والمزايا . يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (٤) .

تأمل معي أيها القارئ الكريم مكانة الرحم عند الله تبارك وتعالى في هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قال فذاك لك) (٥) ثم قال ﷺ : اقرعوا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ (٦) .

وفى رواية للبخارى : فقال الله تعالى : ﴿ من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته ﴾ . فعليك بصلة أرحامك ، وحاذر من قطيعتها فإن الله تعالى جل جلاله يقول فى الحديث القدسي

(١) الآية الأولى من سورة النساء .

(٢) أخرجه مسلم فى العتق : ٢٥ . وأبو داود فى الأدب : ١٢٠ . والترمذى فى البرة : ٨ . وابن ماجة فى الأدب : ١ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٣٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ، ٤٤٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب : ٣١ ، ٨٥ ، وفى الرقاق : ٢٣ . ومسلم فى اللقطة : ١٤ ، وفى الإيمان : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ . وأبو داود فى الأطنمة : ٥ ، والترمذى فى البر : ٤٣ ، وفى القيامة : ٥٠ . وابن ماجة فى الأدب : ٥ . والدرامى فى الأطنمة : ١١ . والامام مالك فى صفة النبى : ٢٢ . والامام أحمد فى ٢ : ١٧٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٤٣٣ ، ٤٦٣ ، وفى ٣ : ٧٦ ، وفى ٤ : ٣١ ، وفى ٥ : ٤١٢ ، وفى ٦ : ٦٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٤٧ ، وفى الأدب : ١٣ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى البر : ١٦ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، وفى ٦ : ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ .

(٦) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة محمد .

(أنا الله وأنا الرحمن وقد اشتقت للرحم اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)^(١) .
 وإذا كانت الآية الكريمة قد أمرت بصلة ذوى القربى وإيتائهم حقهم فلأنهم أولى الناس بالمعروف
 قال عليه الصلاة والسلام : (الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة)^(٢) .
 وليس معنى هذا أن ذوى القربى هم المخصصون بالصلة بل هم أولى الناس بالصلة لأن هناك ربحاً
 عامة : هم كل من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهؤلاء لهم حقوق على كل مسلم ومسلمة كأن
 يعودوا إذا مرض ، ويشيعوا إذا مات ، ويسلم عليهم إذا مر به ، وينصحه إذا استنصحه ، ويحييه إذا دعاه ،
 ويفرح له إن كان في خير ، ويحزن من أجله إن كان في شر .

وهناك صلة إنسانية أوسع دائرة تربط الإنسان مع غيره من الناس رباطاً يقوم على العدل
 والإنصاف دون ظلم أو اعتداء : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن
 تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾^(٣) .

إن قوله تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
 والبغى ﴾ :

لقول يفيض جلاً وكلاً ويشع ضياءً وبهاء .

لقد اشتملت تلك الآية الكريمة على أوامر ثلاثة ونواه ثلاثة :

أما الأوامر الثلاثة فهي :

العدل - والإحسان - وإيتاء ذى القربى .

وأما النواهي الثلاثة فهي :

الفحشاء - والمنكر - والبغى .

فالبغى والعدل نقيضان لا يجتمعان .

والإحسان والمنكر : ضدان لا يلتقيان .

إيتاء ذى القربى والفحشاء : أمران متقابلان لا يلتقيان .

فالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى : فضائل .

والفحشاء والمنكر والبغى : رذائل .

وفي لفظ ﴿ الفحشاء ﴾ : ما يشعر بما فحش وعظم من الذنوب بحيث ياوزن كل لياقة ولذلك

نرى القرآن الكريم يعبر عن بعض الذنوب بلفظ ﴿ الفحشاء ﴾ : فيقول في نكاح زوجة الأب : ﴿ ولا

(١) أخرجه الترمذى في البر : ١٦ . والامام أحمد في ٦ : ٦٢ .

(٢) أخرجه الترمذى في الزكاة : ٢٦ . والنسائى في الزكاة : ٢٢ ، ٨٢ . وابن ماجه في الزكاة : ٢٨ . والدرامى في الزكاة : ٣٨ . والامام

(٣) الآية ٨ من سورة المنتحة .

أحمد في ٤ : ١٧ ، ١٨ ، ٢١٤ .

تتكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴿١﴾ .

ويقول في شأن الزنا ﴿٢﴾ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴿٣﴾ .

ويقول في شأن الشذوذ الجنسي : ﴿٤﴾ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم

تبصرون ﴿٥﴾ .

كل هذه الكبائر من الذنوب فحشت وزاد خطرهما ، من أجل ذلك ورد النهي عنها في كل صورها قال تعالى : ﴿٦﴾ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴿٧﴾ وقال جل شأنه : ﴿٨﴾ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿٩﴾ .

﴿١٠﴾ أما المنكر : فهو ما تنكره الأذواق السليمة ولا يقره العرف الصحيح .

ذلك لأن المنكر ضد المعروف وقد ورد في آيات كثيرة كما في قوله تعالى : ﴿١١﴾ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴿١٢﴾ .

وفي وصية لقمان لابنه : ﴿١٣﴾ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على

ما أصابك ﴿١٤﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿١٥﴾ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن

المنكر ﴿١٦﴾ .

وبنظرة فاحصة في الكلمتين : تستطيع أن تدرك الفرق الشاسع بينهما : ف « المعروف » في

ظهوره ووضوحه : كالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

والمنكر في قبحه وسوء فعله ونفور النفوس السليمة منه : كظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج

الانسان يده لم يكده يراها :

فأكل مال اليتيم : منكر ، والسحر : منكر ، وقذف المحصنات الغافلات : منكر ، وقتل النفس

التي حرم الله قتلها : منكر ، والتولى والفرار من الجهاد : منكر .

والغيبة والتميمة وقطع الطريق كل هذه منكرات ، نهى الله عنها وشدد الوعيد لمقترفها .

﴿١٧﴾ أما البغى : فهو تجاوز الحد وترك العدل والإنصاف مما يترتب عليه الظلم وأكل أموال الناس

بالباطل .

وكلمة الظلم من أشنع الكلمات وأقساها وقعا على النفس حتى كان اصطدام النفوس بها

(٥) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

(٦) الآية ٦٧ من سورة التوبة .

(٧) الآية ١٧ من سورة لقمان .

(٨) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

(١) الآية ٢٢ من سورة النساء .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٥٤ من سورة الممل .

(٤) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

كاصطدام مطارق الحديد بأواني الفخار .

ويكفى للدلالة على ذلك أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى في حق الظالمين ﴿ وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾^(١) .

وقوله جل شأنه : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴾^(٢) .
وقوله تعالى : ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾^(٣) .

استمع معي إلى هذا الحديث القدسي الجامع الذي رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ عن رب العزة جل جلاله إذ يقول : [يا عبادي : إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا .

يا عبادي : كلكم ضال إلا من هديت فاستهدوني أهدكم .

يا عبادي : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم .

يا عبادي : كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم .

يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم : ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادي : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بإها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه [(٤)] .

قال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثاً على ركبته . رواه مسلم .

لقد سقنا هذا الحديث بطوله لما اشتمل عليه من عظام الأمور ويكفى أن تقف عند قوله جل

شأنه : [حرمت الظلم على نفسي] .

سيحان صاحب العدل المطلق والعظمة الإلهية .

ولقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه عن بشاعة الظلم يوم القيامة فقال : « اتقوا

الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »^(٥) رواه مسلم .

(١) الآية ١٨ من سورة غافر .

(٢) الآية ٢٧ من سورة فاطر .

(٣) الآية ٣٨ من سورة مريم .

(٤) أخرجه مسلم في البر : ٥٥ . والامام أحمد في ٥ : ١٦٠ .

(٥) أخرجه مسلم في البر : ٥٦ . والامام أحمد في ٢ : ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفي ٣ : ٣٢٣ .

تأمل معى هذه العدالة المطلقة فى رد الحقوق إلى أصحابها يوم يقوم الناس لرب العالمين .
جاء فى الحديث الشريف : (لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)^(١) رواه مسلم .

ولحرمة الحقوق وشدة صيانة الإسلام لها : وقف الرسول ﷺ فى حجة الوداع يؤكد هذا المعنى فيقول : (إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال : اللهم اشهد (ثلاثاً) ويلكم - أو ويحكم - انظروا : لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)^(٢) .

ثم انظر - بعد ذلك - إلى من يغتصب حق أخيه المسلم بغير حق فى غير حدود الأرض - مثلاً - ما شأنه ؟ وما حاله يوم القيامة ؟

يقول الحديث الشريف : (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)^(٣) .
إذا غرتك قوتك يا ابن آدم فلم استحكمت فىك شهوتك ؟
وإذا غرك غناك : فارزق عباد الله يوماً !

وإياك والظلم . يا أحمى المسلم . فإن رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)^(٤) ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾^(٥) .
وهذه وصية رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن قال : (إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله : فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فأياك وكرائم أموالهم ، اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)^(٦) .

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٢ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٧٢ ، ٤١١ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٣ ، وفى الحج : ١٣٢ ، وفى المغازى : ٧٧ ، وفى الأدب : ٩٥ ، وفى الحدود : ٩ ، وفى الفتن : ٨ .
ومسلم فى الايمان : ١١٨ - ١٢٠ . وابوداود فى السنة : ١٥ . والترمذى فى الفتن : ٢٧ . والنسائى فى التحريم : ٢٩ . وابن ماجة فى الفتن : ٥ . والدارمى فى المناسك : ٧٦ . والامام أحمد فى ١ : ٢٣٠ ، ٢٠٢ ، وفى ٢ : ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، وفى ٤ : ٧٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، وفى ٥ : ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٦٨ ، ٧٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٣ ، وفى بدء الخلق : ٢ . ومسلم فى المساقاة : ١٤٢ . والدرامى فى البيوع : ٦٤ . والامام أحمد فى : ١ : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، وفى ٤ : ١٧٣ ، وفى ٦ : ٦٤ ، ٧٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم فى البر : ٦٢ . وابن ماجة فى الفتن : ٢٢ .

(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٦) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ . ومسلم فى الايمان : ٢٩ . وابوداود فى الزكاة : ٥ . والترمذى فى الزكاة : ٦ . والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ ، وابن ماجة فى الزكاة : ١ . والدارمى فى الزكاة : ١ . والامام مالك فى دعوة المظلوم : ١ . والامام أحمد فى ١ : ٢٣٣ ، وفى ٢ : ٣٤٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

هذا بيان للناس

أخي القارئ الكريم :

وهكذا طفت بك طوافاً مباركاً حول هذه الآية الجامعة التي ورد الأمر فيها بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وجاء النهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغى وكان ختامها قوله تبارك وتعالى : ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

فالوعظ من الله : إرشاد وتوجيه وحدود ومعالم لا يتعداها إلا من ظلم نفسه وسفه قدره ونسى ربه ولفظ (لعل) من الله تعالى لا يفيد الترجى إنما يفيد التعليل والغاية فهو بمعنى (لتذكروا) إذ أن الترجى هو توقع حصول الأمر المحبوب . وتوقع حصول الشيء يفيد الجهل به والجهل على الله محال : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾^(١) .

الوفاء بالعهود في الإسلام
والمحافظة على الإيمان

قال الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أرى من أمة إنما ييلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ :

هاتان الآيتان الكريمتان ورد ذكرهما بعد الآية الجامعة لأصول الإسلام ومبادئه ، وذلك دليل على مكانة العهود في الإسلام ، فقد أكد الله هذا الجانب بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾^(٣) ، وهنا يقول ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ .
والعهد : عبارة عن العقد المؤكد باليمين والله جل جلاله يريد أن يعطى العهد مكانة تليق بالوفاء به فيقول : ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ .

فمن استشعر عظمة الله وهيمنة سلطانه فإنه لن يجترأ على نقض عهوده ولذلك جاء ختام الآية : ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

إذاً : فما دام الله هو الكفيل العالم بالفعل : سره وعلنه أوله وآخره صغيره وكبيره فكفى به كفيلاً وكفى به عليماً .

ثم تأتي الآية الثانية فتشبهه ناقض العهد بعد توكيده : بامرأة خرقاء ذات حماقة وسفاهة غزلت غزلاً محكماً متقناً ثم نقضته نقضاً فذهب غزلها أدراج الرياح وضاع جهدها هباء منثوراً .

كذلك نقض العهود بعد توكيدها : يضعف الأمة ويؤدى بمكانة الفرد مهما كانت الدوافع إلى

(١) الآية ٢٩ من سورة الإنسان . (٢) الآية الأولى من سورة المائدة . (٣) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .

النقض ولذلك سمي الله هذا الفعل خيانة ودخلاً وخديعة فقال : ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ .
 وذلك من أجل أن تكون أمة أكثر عدداً من الأخرى ، فليس المدار على كثرة العدد أو العدة ، إنما
 المدار على الثبات والحزم والرجولة والشهامة .

قال سبحانه جل من قائل : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (١) ، وقال تبارك
 اسمه : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ (٢) .

وإذا كان القرآن الكريم قد شبه ناقضى العهود بالمرأة الخرقاء السفهية ، فإن السنة الشريفة أنزلت
 (الغادر) يوم القيامة مكانة سحيقة من الذل المهوان ، قال صلوات الله وسلامه عليه : (إن الغادر ينصب
 له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان وإن من أعظم الغدر بعد الشرك بالله — أن يبايع رجل
 رجلاً على بيعه الله ورسوله ثم ينكث بيعته فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفن أحد منكم في هذا
 الأمر فيكون فصل بيني وبينه) (٣) .

وكفى بنقض العهد شاعة : أنه يجعل صاحبه من أهل النفاق وكفى بالنفاق إثماً أنه داء عضال
 ووبال فتاك بكرامة الأمم والأفراد ، قال ﷺ : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف
 وإذا أؤتمن خان) (٤) .

وقال أيضاً في رواية للإمام مسلم (وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم) .

وفي حديث آخر (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه
 خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) (٥)
 متفق عليه .

واستمع يا أخى إلى هذه الصورة المشرفة المشرفة من الوفاء بالعهد والتي تمثلت على يدي الصديق
 رضى الله عنه خليفة رسول الله ﷺ .

فعن جابر رضى الله عنه قال : قال لى النبي ﷺ : (لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا
 وهكذا وهكذا فلم يجيء مال البحرين حتى قبض النبي ﷺ فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضى الله
 عنه عليه فنادى : من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو

(١) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الأحزاب .

(٣) أخرجه البخارى فى الجزية : ٢٢ . ومسلم فى الجهاد : ٨ ، ١٠ ، ١٧ . وابوداود فى الجهاد : ١٥٠ . والترمذى فى السير : ٢٨ ، وفى
 الفتن : ٢٦ . وابن ماجه فى الجهاد : ٤٢ . والدارمى فى البيوع : ١١ . والامام أحمد فى ١ : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٤١ ، وفى ٢ : ١٦ ،
 ٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى الايمان : ٢٤ ، وفى الشهادات : ٢٨ ، وفى الادب : ٦٩ . ومسلم فى الايمان : ١٠٧ ، ١٠٩ ، والترمذى فى
 الايمان : ١٤ . والنسائى فى الايمان : ٢٠ .

(٥) أخرجه مسلم فى الايمان : ١٠٦ . والبخارى فى الايمان : ٢٤ ، وفى الجزية : ١٧ . وابوداود فى السنة : ١٥ .

دين فليأتنا فأنتيه وقلت له : إن النبي ﷺ قال لي كذا وكذا فحشى لي حثية فعددتها فإذا هي خمسمائة فقال لي : خذ مثلها (١) متفق عليه .

إن الله تعالى أمرنا في هذا المشهد القرآني الكريم بالوفاء بالعهد ونهانا عن نقض الايمان بعد توكيدها والأوامر والنواهي ابتلاء واختبار ولذا حتم الله هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَيُبَيِّنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وتعقياً على الوفاء بالعهد والمحافظة على الإيمان نقول :

١- النهي عن الحلف بغير الله :

لا يجوز لمسلم أن يحلف بغير الله تعالى ، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه : (إن الله تعالى ينهاكم إن تحلفوا بأبائكم فمن كان حالفاً : فليحلف بالله أو ليصمت) (٢) . وفي رواية في الصحيح (فمن كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله أو ليسكت) .

كذلك من باب الخطأ الشائع أن يحلف الانسان بالأمانة فقد روى أبو داود رضي الله عنه بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال : (من حلف بالأمانة فليس منا) (٣) .

ومن الآفات الشائعة أيضاً بين الناس : أن يبرأ أحدهم من الإسلام إن فعل كذا وكذا .

فما موقف هذا من الله ومن الإسلام ؟

لقد روى أبو داود أن النبي ﷺ قال : (من حلف فقال إني بريء من الاسلام : فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً) (٤) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول : لا والكعبة . فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) (٥) رواه الترمذی .

٢ - الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً :

من الكبائر التي نهى الله ورسوله عنها : الحلف بالله كاذباً فقد أخبر الصادق الأمين ﷺ فقال : (اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع) (٦) .

وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه

(١) أخرجه البخارى في الكفالة : ٣ ، وفي الخمس : ١٥ . وأحمد في ٣ : ٣١٠ .

(٢) أخرجه الامام أحمد في ٢ : ٧ . والترمذی في النور : ٨ .

(٣) أخرجه ابوداود في الايمان : ٥ . والامام أحمد في ٥ : ٣٥٢ .

(٤) أخرجه النسائي في الايمان : ٨ . وابن ماجة في الكفارات : ٣ . والامام أحمد في ٥ : ٣٥٦ ، ٣٥٥ .

(٥) أخرجه الترمذی في النور : ٩ . والنسائي في الايمان : ٤ . وابن ماجة في الكفارات : ٢ . والدرامي في النور : ٦ . والامام أحمد في

١ : ٤٧ ، وفي ٢ : ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ .

(٦) أخرجه الامام أحمد في ٥ : ٧٩ .

لقى الله وهو عليه غضبان) قال : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقة من كتاب الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشتركون به عهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم ﴾^(١) . متفق عليه .

ثم تعال معي أخا الاسلام . لتعمن النظر في هذا الحديث النبوي الشريف الذي يبين فيه الرسول المصطفى ﷺ مدى الخطورة المترتبة على الحلف بالله كذباً في سبيل أن ينال عرضاً دنيوياً فانياً لا قيمة له .

قال صلوات الله وسلامه عليه : (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يارسول الله ؟ وإن كان قضيماً من أراك)^(٢) رواه مسلم .

وقد سمي الإسلام اليمين الكاذبة : باليمين الغموس ، لأنها تغمس صاحبها في النار ولذلك نظمها في سلك الكبائر من الذنوب ، قال صلوات الله وسلامه عليه (الكبائر : الإشراف بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)^(٣) رواه البخارى .

وفي رواية للبخارى أيضاً : أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال يارسول الله : ما الكبائر ؟ قال (الإشراف بالله قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس قلت : وما اليمين الغموس . قال : الذي يقتطع مال امرئ مسلم) .

يعنى يمين هو فيها كاذب .

٣ - رحمة الله بعباده :

من باب رحمة الله التي وسعت كل شيء أنه لم يجعل اليمين مانعاً من فعل الخير ، فإذا حلفت يميناً إلا تفعل كذا ثم ظهر أن الخير في فعله فلا تجعل يمين الله عائقاً ومانعاً من فعل ما حلفت عليه ، بل افعل الذي هو خير وكفر عن يمينك .

وكفارة اليمين : هي كما بينها الله تبارك وتعالى في قوله ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة

(١) أخرجه البخارى في الخصومات : ٤ ، وفي الشهادات : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، وفي تفسير سورة ٣ : ٣ . وفي الايمان : ١١ ، ١٧ ، ومسلم في الايمان : ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ . وابوداود في الايمان : ١ . والترمذى في البيوع : ٤٢ . وابن ماجة في الاحكام : ٨ . والامام أحمد في ١ : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٤٢ ، ٤٦٠ ، وفي ٢ : ١١٨ ، وفي ٤ : ١٩٢ ، ٣١٧ ، وفي ٥ : ٢٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) أخرجه البخارى في التوحيد : ٢٤ . ومسلم في الايمان : ٢١٨ . والترمذى في تفسير سورة ٣ : ٢١ . والنسائى في القضاة : ٣٠ . والدارمى في البيوع : ٦٢ . والامام مالك في الاقضية : ١١ . والامام أحمد في ١ : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٤١٦ . وفي ٥ : ٢٦٠ ، وفي ٦ : ٢١٢ .

(٣) أخرجه البخارى في الأدب : ٦ ، وفي الايمان : ١٦ ، وفي الدييات : ٢ ، وفي الاستئانة : ١ . والترمذى في تفسير سورة ٤ : ٤ ، ٦ ، والنسائى في التحريم : ٣ . والدارمى في الدييات : ٩ . والامام أحمد في ٢ : ٢٠١ ، ٢١٤ ، وفي ٣ : ٤٩٥ .

أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ﴿١﴾ .

وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك) ﴿٢﴾ . متفق عليه .

وقال أيضاً صلوات الله وسلامه عليه : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير) ﴿٣﴾ . رواه مسلم .

هذه أمور ثلاثة عقبتنا بها على آية (الأيمان والعهود) وذلك نظراً لعموم البلوى وإنتشار وقوعها . وكان أول هذه الأمور : النهى عن الحلف بغير الله .

وكان ثانياً : الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً .

وكان ثالثها : التكفير عن اليمين إذا كان الخير في غيرها .

مشيئة وحكمة وتوجيه

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ :

اعلم يا أخى أن مشيئة الله تعالى مبنية على علم وحكمة ، وأن من مشيئته تعالى أنه أعطى عباده الاختيار والكسب والعقل والتمييز ، ووهبهم القوى التي تمكنهم من سلوك الطريقتين : طريق الخير وطريق الشر ، فليس لإنسان مجترىء على المخالفة لأوامر الله أن يُلقى باللائمة على مشيئة الله .

قال سبحانه في حق الإنسان : ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ ﴿٤﴾ ، وفسر السبيل بقوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ﴿٥﴾ بعدها قال : ﴿ ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفقتين ﴾ ﴿٦﴾ ، وفسر ﴿ النجدين ﴾ بقوله : ﴿ ونفس وما سواها * فآلهما فجورها وتقواها ﴾ ﴿٧﴾ .

وأرشد إلى الخير وحذر من الشر فقال : ﴿ قد أفلح من زكاه * وقد خاب من دساها ﴾ ﴿٨﴾ .

وزاد هذه القضية وضوحاً وإظهاراً وقال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على

الهدى ﴾ ﴿٩﴾ .

(١) الآية ٨٩ من سورة المائدة .

(٢) أخرجه البخارى في الايمان : ١ ، ٨٣ . ومسلم في الايمان : ١٩ . وابوداود في الايمان : ١٢ ، ١٤ . والترمذى في النور : ٥ .

والنسائى في الايمان : ١٥ ، ١٦ . وابن ماجة في الكفارات : ٧ . والدارمى في النور : ٩ . والامام أحمد في : ١٣٧ ، وفي : ٥ ، ٦١ ،

٦٢ ، ٦٣ .

(٧) الآيات ٧ ، ٨ من سورة الشمس .

(٣) أخرجه الامام أحمد في ٤ : ٤٢٨ .

(٨) الآيات ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٤) الآيات ٢ ، ٣ من سورة الانسان .

(٩) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٥) الآية ١٠ من سورة البلد .

(٦) الآيات ٨ ، ٩ من سورة البلد .

ثم نادى بعد ذلك في عزة وكبرياء تليق بذاته العلية فقال : ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾^(١) .

ثم بين مدى رحمته بعباده فقال : ﴿إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾^(٢) .

وقد سئل الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه فقيل له : ما بال الله يريد ثم يعاقب ؟ فقال الإمام كلمة تكتب بمداد من الذهب ، قال : (الله أراد بنا وأراد منا فأخفى ما أراد بنا وأظهر ما أراد منا فاحتججنا بما أراد بنا وتركنا ما أراد منا) .

تلك كلمة حق فاصلة نوجهها إلى (المفلسين) الذين أقدموا على المخالفات الشرعية تاركين أوامر الله وطرحوها وراءهم ظهرياً ، ويشربون ويلعبون وعلى الأعراض يعتدون ، في الحياة يعبثون ويعبثون ، ثم بعد ذلك يلقون باللائمة على صفحة الغيب ، فإذا كلمت أحدهم في ذلك فلا تسمع منه إلا جدالاً في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن مشيئة الله صالحة لأن تجعل الناس كلهم أمة واحدة والاضلال والهداية ، إنما يكونان على حسب استعداد العبد وسلوكه ، قال سبحانه : ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى﴾^(٣) .

ولذا يقال لهذا (النادم) يوم القيامة : ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾^(٤) .

فيا أخى : قل لمن عصى ربه وقال إنه أراد بى هكذا قل له : أطلعت على الغيب ، أم اتخذت عند الرحمن عهداً .

قل له : ألم يرسل ربك إليك رسولاً يبين لك الحلال والحرام ؟

قل له : ألم ينزل إليك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفيه تبيان لكل شيء ؟

قل له : ألم يهبك الله عقلاً تميز به الخبيث من الطيب ؟

ثم قل له بعد ذلك ألم يرفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ .

قل له : ألم يتجاوز ربك بفضله وكرمه عن الخطأ والنسيان وما استكره الإنسان عليه ؟

قل له : ألم يفتح ربك الكريم باب التوبة ، ويسط يدك بالنهار ليتوب مسيء الليل ويسط يده بالليل

ليتوب مسيء النهار .

(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

(٤) الآية ٥٩ من سورة الزمر .

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٧ من سورة الزمر .

قل له : ألم تسمع إلى قول إبليس اللعين لربه عز وجل وعزتك وجلالك (لأغوينهم) مادامت أرواحهم في أبدانهم . فقال رب العزة وعزتي وجلالي ، لأغفرن لهم ماداموا يستغفرونني ؟
إذاً : فقوله تعالى : ﴿ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ، لا يفيد إجبار العبد على سلوك طريق الضلال ، وذلك كما بينا في الآيات السابقة . إنما المشيئة هنا مبنية على علم الله ، والعلم صفة انكشاف لا صفة إلزام وجبر .

إن الله تعالى فرض فرائض فأدوها ، ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها .

ترغيب وترهيب

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

المفردات : ﴿ زلة القدم بعد ثبوتها ﴾ : مثل يقال لمن وقع في محنة بعد نعمة وبلاء بعد

عافية .

﴿ والحياة الطيبة ﴾ : هي القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا لما في ذلك من الكد والعناء .

وتعود الآيات فتؤكد الوفاء بالعهد ، وتنبى عن اتخاذ الأيمان خديعة ومراوغة ، إذ أنه سياتر على ذلك زلة الأقدام بعد ثبوتها هذا في الدنيا : أما في الآخرة فعذاب ألم وخزي عظيم .

ثم ينهى عن أن يشتري الانسان بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً ، فيخالف بذلك ربه ، لأن ما في هذه الدنيا كلها لا يساوى عند الله جناح بعوضة إذا قيس بما عند الله ﴿ إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴿ .

ألا أن كل شيء هالك إلا ما عند الله ، وما عنده لا يناله إلا الصابرون على طاعته ، المقيمون لشعائر دينه ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجراً أحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ :

ما أعظم العدالة الإلهية ، وما أجمل قدرها ، وما أفضل الكرم الرباني ، وما أرفع شأنه :
 يامن يجيب العبد قبل سؤاله ويجود للعاصين بالغفران
 وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالإحسان
 أصبحت ضيف الله في دار الرضا وعلى الكريم كرامة الضيفان
 تعفوا الملوك عن النزيل بسلاحهم كيف النزول بساحة الرحمن
 وأنا المسيء وقد دعوتك سيدي تعفو وتصفح للعبيد الجاني
 يامن إذا وقف المسيء ببابه ستر القبيح وجاد بالإحسان

وعدت من الله ، والله لا يخلف وعده ، لمن عمل صالحاً لافرق في ذلك بين الذكر والأنتى .
 والعمل الصالح : هو كل ما جاء موافقاً لأوامر الله ورسوله ، ولقد وعد الله هؤلاء بوعدين :
 أحدهما : في الدنيا ، والآخر : يوم القيامة .

أما في الدنيا : فحياة طيبة فيها سكينه وقناعة ، ورضا من الله وعن الله رضى الله عنهم ورضوا

عنه .

وأما في الآخرة : فجزاء بأحسن ما كانوا يعملون .

والإيمان شرط أساسى ، فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان مبنياً على الإيمان ، قال سبحانه : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ :

وتظهر ثمرة الإيمان في الرضا بالقضاء ، والشكر على الرخاء ، والصبر عند البلاء ، ولا يجوز لعبد مؤمن أن يجزع لما قضى الله . وكان داود عليه السلام يقول : (اللهم إني أسألك أربعاً وأعوذ بك من أربع : أسألك لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وبدناً على البلاء صابراً وزوجة تعيننى على دينى ودينائى : وأعوذ بك من ولد يكون على سيداً ومن مال يكون وبالاً على ويمتع به غيرى ومن جار سوء إن رأى منى خيراً أنكره وإن رأى سوءاً نشره ومن زوجة تشيننى قبل المشيب) .

فبادر يا أخى بالعمل الصالح لتنال الوعدين الكريمين في الدنيا والآخرة ، وسارع بالتوبة والرجوع إلى الله ، وما أجمل الصلح مع الله ، ألا وإن الصلح مع الله طريق النجاة .

إرشادات وبيان

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى
وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ
إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

المفردات : ﴿سلطان﴾ : تسلط وقوة ، ﴿بدلنا آية﴾ : رفعا آية وجعلنا موضعها
غيرها ، ﴿روح القدس﴾ : أى جبريل ، ﴿يلحدون﴾ : يميلون إليه ويشيرون ، ﴿أعجمي﴾ :
العجمة فى لسان العرب الإخفاء وضد البيان ورجل أعجم وامرأة عجماء أى لا يفصح .
قوله تعالى : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ :

أى إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، كما فى قوله تعالى : ﴿إذا قمتم إلى
الصلاة فاعسلوا وجوهكم﴾ الآية ، أى إذا أردتم الصلاة فاعسلوا وجوهكم ، والأمر فى قوله تعالى
﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ : للندب وحكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره
من الأئمة .

والحكمة من الابتداء بالاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ، ويخلط عليه ،
ويمنعه من التدبر والتفكر .

قوله تعالى : ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على الذين
يتولونه والذين هم به مشركون ﴿ :

قال بعض المفسرين معناه لاحجة له عليهم .

وقال الثورى : ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه . وقال آخرون : كقوله
﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾^(١) .

﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ :

قال مجاهد : يطيعونه .

وقال آخرون : اتخذوه وليا من دون الله .

﴿والذين هم به مشركون﴾ :

أى أشركوه فى عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان

مشركين بالله تعالى .

(١) الآية ٤٠ من سورة الحجر .

وقال آخرون : معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴿ : قال قتادة هو كقوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ (١) الآية .

وقال العلامة ابن كثير : في هذه الآية يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الايمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا الرسول الله ﷺ (إنما أنت مفتر) أى كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وأجابهم الله تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس ﴾ : أى جبريل ﴿ من ربك بالحق ﴾ : أى بالصدق والعدل .

﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ : فيصدقون بما أنزل أولاً وثانياً ، وتخت له قلوبهم ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ : أى وجعله هادياً ، وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله .

قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ :

وهذا مما افتراه الكافرون على صاحب الرسالة العصماء ﷺ ، وما كان أكثر ما يفترون ، فقد كانوا يقولون إن الذى يتلوه علينا محمد من القرآن إنما كان يعلمه بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان يباعاً يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد الجواب .

فلهذا قال تعالى رادا عليهم افتراءهم ذلك : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ : أى القرآن ، أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل .

قال محمد بن اسحق بن يسار في السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبيعة ، غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد لبعض بنى الحضرمى ، فأنزل الله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله وهم عذاب أليم ﴾ * إنما يفترى الكاذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴿ :

هذا حكم عادل من الحكم العدل ، وجزاء حق على الذين لا يؤمنون بآيات الله ويكذبونها ويحذونها ، كيف يهديهم الله وقد كفروا بآياته .

وقال الله فيهم : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾^(١) .

إنهم أظلم الخلق الذين قال الله فيهم : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا * ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يدها ﴾^(٢) .

انتم الذين أعرضوا عن ذكر الله ، فحق فيهم قوله جل شأنه ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾^(٣) .

إن الله تعالى لا يهدي هؤلاء في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجه يوم يقوم الناس لرب العالمين : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطر به كان وعده مفعولاً * إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ هذا دفاع من الله جل وعز عن الصادق الأمين محمد ، فما كذب على الله قط ، وما افتري عليه ما لم يقله .

لقد جاء في الحديث القدسي الجليل قوله تعالى : [صدق عبدى فيما بلغ عنى] . وكيف يكذب ورب العالمين يقول : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾^(٥) .

وكيف يكذب وقد زكى الله تعالى عقله : فاقسم : ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾^(٦) .

وزكى لسانه ، فقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾^(٧) .

وزكى شرعه ، فقال : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾^(٨) .

(١) الآية ٥٧ من سورة الكهف .

(٢) الآيات ٥٦ ، ٥٧ من سورة الكهف .

(٣) الآيات ١٢٤ - ١٢٧ من سورة طه .

(٤) الآية ١٧ - ١٩ من سورة المزمل .

(٥) الآيات ٤١ - ٤٧ من سورة الحاقة .

(٦) الآيات ١ - ٢ من سورة النجم .

(٧) الآية ٣ من سورة النجم .

(٨) الآية ٤ من سورة النجم .

وزكى جليسه فقال: ﴿علمه شديد القوى﴾^(١) وزكى فواده ، فقال : ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾^(٢) .

وزكى بصره ، فقال : ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾^(٣) .

وزكى أمته ، فقال : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾^(٤) .

وزكى أهل بيته ، فقال : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾^(٥) .

وزكى رسالته ، فقال : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٦) .

وزكاه كله ، فقال تعالى : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾^(٧) .

﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾^(٨) .

فكيف يكذب محمد على الله وهو أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً ، وإيماناً وإيقاناً ، معروفاً بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم ، بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سأها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله .

إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

(٧) الآية ٤ من سورة القلم .

(٨) الآية ١١١ من سورة يوسف .

(٤) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

(٦) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(١) الآية ٥ من سورة النجم .

(٢) الآية ١١ من سورة النجم .

(٣) الآية ١٧ من سورة النجم .

المفردات : ﴿ شرح بالكفر صدرا ﴾ : فتحه ووسعه والمراد اطمأن صدره له ،
 ﴿ غضب أشد من اللعن الذى هو الطرد من رحمة الله ﴾ ، ﴿ استحبوا ﴾ : اختاروا وأحبوا ،
 ﴿ فتوا ﴾ : اختبروا بالعذاب .

سبب النزول

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أن قريشا كفروا برسول الله ﷺ ، وتقولوا عليه
 الأقاويل ، فوصفوه بأنه مفتر ، وأن الكتاب الذى جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله ، ثم هددهم
 على ذلك أعظم تهديد ، قفى على ذلك بيان حال من يكفر بلسانه وقلبه ملىء بالإيمان .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل (أن المشركين أخذوا عمّار بن ياسر فلم يتركوه
 حتى سب النبي ﷺ وذكر آهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال له : ما وراءك ؟ قال : شر
 ما تركت ، نلت منك وذكرت آهتهم بخير ، قال : كيف تجد قلبك ؟ قال ! مطمئن بالإيمان ، قال : إن
 عادوا فعد فنزلت ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ :)

وروى (أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ،
 ووجئت بحربة فى موضع عفتها ، وقالوا : إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها ، وقتلوا ياسراً ، وهما أول
 قتيلين فى الاسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل : يا رسول الله إن عماراً كفر ،
 فقال رسول الله ﷺ : كلا إن عماراً ملىء بإيمان من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى
 عماراً رسول الله ﷺ وهو يبكى فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال : مالك ؟ إن عادوا فعد لهم بما
 قلت) .

قوله تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ : هذا استثناء من قوله ﴿ من كفر بالله من
 بعد إيمانه ﴾ : لأن هذا الفريق من الناس كفر بلسانه ، والإيمان مطمئن فى قلبه ، حتى يوافق لسانه
 ما يقول به المشركون ، ولكن القلب عامر بالإيمان ، والتصديق لا يتغير ولا يتبدل الإيمان صانع العجائب
 والمعجزات ، إذا باشرت بشاشته شفاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكناً ، فلو أنه صعد إلى السماء
 لكان قمراً منيراً ، ولو امتزج بماء البحر لجعله عذبا فراتاً سلسبيلا ، ولو هبط إلى الأرض لكساها سندساً
 وحريراً .

أما الذين تمكن الكفر من قلوبهم وشرحوا به صدراً فقد حكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ فعليهم
 غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ .

ثم بين حيثيات هذا الحكم بقوله : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله

لا يهدي القوم الكافرين ﴿١﴾ ، وبقوله : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾ :

لقد أغلقوا كل نافذة إلى المعرفة ، وآثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، فحق فيهم قوله جل شأنه : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ (١) .

وحق فيه قوله جل شأنه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ (٣) .

نعم إن الله لا يهدي القوم الكافرين ، لأنه حكيم لا يعرف العبث فكيف تجتمع الهداية والكفر في قلب واحد ، إن هؤلاء القوم قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وعلى سمعهم فلا يسمعون بها ، وعلى أبصارهم فلا يبصرون بها ، ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٤) .

قال تعالى في حق هؤلاء : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ (٥) ، ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ (٦) .

﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ :

وهل هناك أشد خسراناً من خسر نفسه ، حقاً ذلك هو الخسران المين ، قال تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ (٧) .

قوله تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ :

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه ، وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه مليء بالإيمان -

(٥) الآية ٤ من سورة فصلت .
 (٦) الآية ٥ من سورة فصلت .
 (٧) الآيات ١٠٣ - ١٠٥ من سورة المؤمنون .

(١) الآيات ٧ ، ٨ من سورة يونس .
 (٢) الآيات ١٥ ، ١٦ من سورة هود .
 (٣) الآية ١٨ من سورة الإسراء .
 (٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

أردف بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم ، فوافقوا المشركين على الفتنة في الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ثم فرّوا وتركوا بلادهم وأهلهم ابتغاء رضوان الله وطلب غفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم ربهم بقبول توبتهم ، ودخولهم في زمرة الصالحين ، وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب .

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن عياشا رضى الله عنه - وكان أخا أبى جهل من الرضاعة - وأبا جندل بن سهل وسلمة بن هشام وعبد الله بن سلمة الثقفى ، فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا فنزلت فيه الآية : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصابروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ .

أى أن ربك أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم وتركوا مساكنهم من أهل الشرك ، وانتقلوا عنهم إلى ديار الاسلام ، من بعد أن فتنهم المشركون الذين كانوا بين ظهرانهم قبل هجرتهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف ، وبألسنتهم بالبراءة منهم وبما يعبدون من دون الله ، وصابروا على جهادهم - إن ربك من بعد أفعالهم هذه لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم ، وهم لغيرها مضمرون ، وللايمان معتقدون ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه ، وجميل صنعهم من بعد .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ :

أى إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم تأتي كل نفس تخاصم عن نفسها ، وتحتاج عنها ، وتسعى في خلاصها ، بما أسلفت في الدنيا من عمل ولا يهمل شأن غيرها من ولد ووالد وقريب . ﴿ وثوقى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ :

أى وتعطى كل نفس جزاء ما عملت في الدنيا من طاعة أو معصية فيجزى المحسن بما قدم من إحسان ، والمسيء بما أسلف من إساءة ، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسيء فكل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمل شأن غيره كما قال سبحانه : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ (١) .

وجاء في بعض الآثار : (أن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسى نفسى حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك) .

جزاء كفر النعمة والأمر بشكرها

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾
 وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾
 إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْخَنِزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾
 مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا أَلْسُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

المفردات : ﴿ فأذاقها ﴾ : شبه إدراكهم الضرر بتذوقهم طعم المر ، ﴿ يقولون ﴾ : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن عينه تفتن من رآها ، لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال وعينه منبعاً للفتنة والسحر كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكليهما ، يحيط بتحقيقتيها يصفهما الناس أجمل وصف ويعرفهما أتم تعريف وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾ (١).

إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة ، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هي حقيقته ومنبعه وعليه قول ابى العلاء المعرى :

سرى برق المقررة بعد وهن
 فبات برامة يصف الكلالا
 أى أن سرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .
 لتفتروا : أى لتكون العاقبة ذلك .
 والجهالة هنا : الطيش وعدم التدبر فى العواقب .

المناسبة

بعد أن هدد سبحانه الكافرين بالعذاب الشديد في الآخرة - أردف ذلك الوعيد بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد بعد أمن واطمئنان وعيش رغد .

قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴿ :

هنا مثل أريد به أهل مكة (من القواعد المقررة في الأصل أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) فإنها تشمل كل مجتمع ينتشر فيه الظلم والكفر والجحود ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ﴾ * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون * وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون * أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴿^(١) .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾^(٢) .

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

لقد كانت تلك القرية آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال : ﴿ وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾^(٣) .

وهكذا قال هنا : ﴿ يأتيها رزقها رغداً ﴾ : أي هنيئاً سهلاً ، ﴿ من كل مكان فكفرت بأنعم الله ﴾ : أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾^(٤) .

ولهذا بد لهم الله بحالهم الأولين خلافهما ، فقال : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ : أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجيب إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان .

(١) الآيات ٥٨ - ٦١ من سورة القصص .

(٢) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .

(٣) الآية ٥٧ من سورة القصص .

(٤) الآيات ٢٨ ، ٢٩ من سورة إبراهيم .

وذلك أنهم أستعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العلهز - وهو وبر البعير - يخلط بدمه إذا نحره .
وقوله : ﴿ والخوف ﴾ : وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيتهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم ، وامتن به عليهم في قوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ (٢) .
وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ، ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم * ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾ .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأمرين في هذه الآية أن يأكلوا من رزقه الحلال الطيب ، وأن يشكروا نعمته .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (٣) .

ويرحم الله زماناً كانت المرأة المسلمة تقول لزوجها ناصحة له عندما يخرج من بيته سعياً وراء لقمة العيش : يا فلان اتق الله فينا ، ولا تأكل حراماً ، فإننا نستطيع أن نصبر على الجوع في الدنيا ، ولا نستطيع أن نصبر على عذاب الله يوم القيامة .

فإذا عاد إلى بيته سأله سؤالين :

كم نزل اليوم من القرآن ؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ ؟

(١) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الطلاق .

(٣) الآية ١٧٢ من سورة البقرة .

نعم أن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وإن الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمّر ، وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فيا أيها المخاطبون بهذا الخطاب اتبعوا أوامر الله إن كنتم إياه تعبدون ، فلا معبود سواه ، ولا رب غيره ، فالمصير إليه ، والمآب إليه ، والمرجع إليه .

ثم يذكر الله تعالى بعد ذلك أنواعا من المحرمات فيقول : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ :

الميتة : ما لم يذكّر زكاة شرعية والمراد بالدم المسفوح كما جاء بيان ذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (٢) .

والمراد بما أهّل لغير الله به أي ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا فمن اضطر إليه ، أي احتاج من غير بغى ولا عدوان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ * إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴾ :

عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا . وقد صدق فكل من أفتى بخلاف ما في كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم .

ولله در القائل :

كهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : (عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت) . وهذه الآية التي بين أيدينا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تُفْتَرُونَ * وَمَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

إن مدار الحل والحرم على ما شرعه الله تعالى وبلغه رسوله ، ومن ثم فقد ألقى القرآن الكريم باللائمة على الذين حرموا وأحلوا من غير سلطان أتاهم فشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله فحرموا البحيرة

(٣) الآيات ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .

(١) الآيات ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

والسائبة والوصيلة والحام : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن مية فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليهم ﴿^(١) .

وقد أوعد الله تعالى الذين حرموا وأحلوا من غير إذن من الله وتشريع من لدنه بسوء العاقبة فقال :
﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ : فاللام هنا للعاقبة والصيرورة :

﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ : مهما تزينت لهم الدنيا ، وضحت لهم الأيام ، فالمتاع فيها قليل .

قال جل شأنه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾^(٢) .

وهنا يقول جل شأنه : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل وهم عذاب اليم ﴾ :

أى مؤلم مومج ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾^(٣) ؛ ﴿ إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى في البطون * كغلي الحميم ﴾^(٤) .
وقد حرص السلف الصالح كل الحرص على التحرى في الفتوى ، وقد كانوا يعلمون أنهم يوقعون عن الله تعالى ، وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول لمن يستفتيه : (لا تجعلوا ظهورنا جسوراً إلى جهنم) .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ :

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما رخص فيه عند الضرورة — وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى — ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والخرج ، فقال :

(٣) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(١) الآيات ١٣٦ - ١٣٩ من سورة الأنعام .

(٤) الآيات ٤٣ - ٤٦ من سورة الدخان .

(٢) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة النساء .

﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ : أى فى سورة الأنعام فى قوله تعالى :
﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما
أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببيغيم وإنا لصادقون ﴾ (١) .

ولهذا قال ههنا ﴿ وما ظلمناهم ﴾ : أى فيما ضيقنا عليهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ :
أى فاستحقوا ذلك كقوله : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل
الله كثيراً ﴾ (٢) .

ثم أخبر تعالى تكروما وإمتنانا فى حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه ، فقال : ﴿ ثم
إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ :

قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل .

﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ : أى أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصى ، وأقبلوا على فعل
الطاعات ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ : أى تلك الفعلية والزلة ﴿ لغفور رحيم ﴾ .

الخليل والحبيب

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ
وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ
الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾
إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٩﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٣٠﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ
مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَاتَكْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٣٣﴾

المفردات : ﴿ الأمة ﴾ : الجماعة الكثيرة ، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل
والكمالات ما لو تفرق لكفى أمة ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهارون الرشيد مادحاً وليس على الله
بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد ، ﴿ والقانت ﴾ : المطيع لله القائم بأمره ، ﴿ والحيف ﴾ : المائل عن

(٢) الآية ١٦٠ من سورة النساء .

(١) الآية ١٤٦ من سورة الأنعام .

الدين الباطل إلى الدين الحق ، ﴿ واجتباه ﴾ : اختاره واصطفاه ، ﴿ والحسنة ﴾ : هي حبة أهل الأديان جميعاً له إجابة لدعوته لربه (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين)^(١) ، ﴿ وجعل السبت لليهود ﴾ : فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد ، ﴿ والحكمة ﴾ : المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ، ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ : الدلائل الظنية المقنعة للعامة ، ﴿ والجدل ﴾ : الحوار والمناظرة لاقتناع المعاند ، ﴿ والعقاب ﴾ : فى أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ثم استعمل فى مطلق العقاب ، ﴿ والضيق ﴾ : (بفتح الضاد وكسرهما) الغم وانقباض الصدر .

المناسبة

بعد أن زيف سبحانه مذاهب المشركين فى إثبات الشركاء والأنداد لله ، وفى طعنهم فى نبوة الأنبياء والرسل بنحو قوله : لو أرسل الله رسلاً لأرسل ملائكة ، وفى تحليلهم أشياء حرمها الله وتحريم أشياء أحلها الله ، وبالغ فى هذه المعتقدات ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين ، الذى كان المشركون يفتخرون به ويقرون بوجوب الاقتداء به ، ليصير ذكر طريقته حاملاً لهم على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك .

ثم يأمر نبيه محمد ﷺ باتباعه ، ثم يجعل الأسس التى يبنى عليها دعوته هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم يأمره باللين فى العقاب . إن أرادته ، أو بترك العقاب وهو أفضل للصابرين ، ثم يأمره بجعل الصبر رائده فى جميع أعماله ، ونبيه عن الحزن على كفر قومه ، وأنهم لم يجيبوا دعوته ، وأنهم يكرهون به ، فإله ينصره عليهم ويكفيه أذاهم ، فقد جرت سنته بأن العقاب للمتقين ، والخذلان للعاصين الخائنين .

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ :

مدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء بجملة صفات من صفات الكمال :

١ - أنه وحده كان أمة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه كان عنده عليه الصلاة والسلام من الخير ما كان عند أمة ، فهو رئيس الموحدين ، كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر فى النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ، ليطمئن قلبه بالاسلام .

٢ - إنه كان قانتاً ، أى مطيعاً لله قائماً بأمره .

٣ - إنه كان حنيفاً أى مائلاً عن الباطل متبعاً للحق لا يفارقه ولا يجيد عنه .

٤ - إنه ما كان من المشركين فى أمر من أمور دينهم ، بل كان من الموحدين فى الصغر والكبر ، فهو الذى

(١) الآية ٨٤ من سورة الشعراء .

قال للملك في عصره ﴿ربى الذى يحى ويميت﴾^(١) وهو الذى أبطل عبادة الأصنام والكواكب ، بقوله : ﴿لا أحب الأفلين﴾^(٢) وكسر الأصنام حتى ألقوه لأجلها فى النار ، فكانت عليه برداً وسلاماً .

وعلى الجملة فقد كان غارقاً فى بحار التوحيد ، مستغرقاً فى حب الإله المعبود ، وفى ذلك رد على كفار قريش إذ قالوا نحن على ملة إبراهيم ، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا عزير ابن الله ، مع زعمهم أن إبراهيم كان على مثل ما هم عليه .

ونحو الآية قوله ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾^(٣) .

٥ - إنه كان شاكراً لأنعم الله عليه كما قال : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾^(٤) أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به ، وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله فأصابهم الجوع والخوف كما تقدم ذكره فى المثل السابق .

٦ - إنه اجتبه ربه واختاره للنبوّة ، كما قال ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾^(٥) .

٧ - إنه هداه إلى صراط مستقيم ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، مع إرشاد الخلق إلى ذلك والدعوة إليه .

٨ - إن الله حبه إلى جميع الخلق ، فجميع أهل الأديان مسلميهم ونصاراهم ويهودهم يعترفون به ، وكفار قريش لا فخر لهم إلا به ، وقد أجاب الله دعاءه فى قوله ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾^(٦) .

٩ - إنه فى الآخرة فى زمرة الصالحين ، وهو معهم فى الدرجات العلى من الجنة ، إجابة لدعوته قال : ﴿ رب هب لى حكماً وأخقنى بالصالحين ﴾^(٧) .

وبعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التى بلغت الغاية فى علو المرتبة ، أخبر أنه أمر نبيه محمداً ﷺ بإتباعه فقال : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ : أى ثم أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة البريئة من عبادة الأوثان والأنداد . التى يعبدها قومك ، كما تبرأ إبراهيم من مثلها من قبل ، فأنت متبع له وسائر على طريقه ، وقومك ليسوا كذلك ، لأنهم يخللون ويحرمون من عند أنفسهم .

ونحو الآية قوله فى سورة الأنعام : ﴿ قل إننى هدانى ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾^(٨) .

(٧) الآية ٨٣ من سورة الشعراء .

(٨) الآية ١٦١ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٣٧ من سورة النجم .

(٥) الآية ٥١ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية ٨٤ من سورة الشعراء .

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٧٦ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٦٧ من سورة آل عمران .

والخلاصة : أنه عليه الصلاة والسلام يأمر بإتباع ملة إبراهيم ، ينفي الشرك وإثبات التوحيد ، وإن كان قد ثبت ذلك بالدليل العقلي ليظهر الدليل النقلى الدليل العقلى .

وقوله : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ : تكرير لزيادة التوكيد ، وتقرير لنزاهته عليه الصلاة والسلام عما هم عليه من عقيدة وعمل .

ثم نعى على اليهود ما اختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ :

أى إنما جعل وبال يوم السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى ، وكان من الحتم عليهم أن يتفقوا فيه على كلمة واحدة ، بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه ، كما أن وبال التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقع عليهم لاحالة .

وإن ربك ليفصل بين الفريقين فى الخصومة والاختلاف ، ويجازى كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب .

وإيراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه إنذار للمشركين ، وتهديد لهم بما فى مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال ، كما ذكر مثل القرية فيما سلف إلا أن فيه حثا على إجابة الدعوة التى تضمنها سابق الكلام ، وأمروا بها فى لاحقه .

ثم فصل سبحانه ما أمر باتباع إبراهيم فيه فقال : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ :

أى ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التى شرعها لخلقه بوحى الله الذى يوحيه إليك ، وبالعبز والمواعظ التى جعلها فى كتابه حجة عليهم ، وذكرهم بها فى تنزيله ، كالذى عدده فى هذه السورة .

وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها ، بأن تصفح عما نالوا من عرضك من أذى ، وترفق بهم بحسن الخطاب ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ (١) الآية .

وقال أمراً موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فقولاً له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (٢) .

ثم تواعد سبحانه ووعد فقال : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ :

(١) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ٤٤ من سورة طه .

أى إن ربك أيها الرسول هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين في السبت وغيره ، وأعلم بمن كان منهم سالكاً قصد السبيل ومحجة الحق . وهو مجازيهم جميعاً حين ورودهم إليه بحسب ما يستحقون .

وخلاصة ذلك - سلك في الدعوة والمناظرة الطريق المثلى ، وهى الدعوة بالتي هى أحسن وليس عليك غيرها .

أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره ، إذ هو أعلم بحال من لايرعوى عن الضلال لسوء اختياره ، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما ينطوى بين جنبه من الخير ، فما شرعه لك في الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة ، وهو كاف في هداية المهتدين ، وإزالة عذر الضالين .

ولما أمر الله رسوله بالدعوة وبين طريقها ، وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم ، والحكم عليهم بالكفر والضلالة ، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعى إما بقتله أو بضربه أو بشتمه ، كما أن الداعى يدعوه طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وأخرى بالضرب ، لا جرم أمر سبحانه المحقين برعاية العدل والإنصاف في العقاب وترك الزيادة فيه فقال : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولكن صبرتم هو خير للصابرين ﴾ : أى وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم فلکم في العقاب إحدى طريقين :

١ - أن تعاقبوه بمثل الذى نالكم به ظالمكم من العقوبة .

٢ - أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب وتصفحوا عنه ، وتحسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم ، وتكلوا أمركم إليه والله يتولى عقوبته ، والصبر خير للصابرين من الانتقام ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه .

والخلاصة : أنكم إن رغبت في القصاص فاقنعوا بالمثل ، ولا تزيدوا عليه ، فإن الزيادة ظلم والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويأخذ بنصر المظلوم .

ثم أمر رسوله بالصبر صراحة بعد أن ندب إليه غيره تعريضاً ، لأنه أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشئونه تعالى فقال : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ :

أى واصبر على ما أصابك منهم من أذى في الله ، ومن إعراض عن الدعوة ، وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وحسن توفيقه ومشيبته المبنية على الحكم البالغة التى تنتهى إلى عواقب حميدة .

وفي هذا تسليح للنبي ﷺ ، وتهوين لمشاق الصبر عليه ، وتشريف له بما لا مزيد عليه .

﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ : أى ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذبونك ، وينكرون ما جئتكم به .

﴿ولاتك في ضيق مما يمكرون﴾ : أى ولا يضيق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر إحتيالاً وخديعة ، لمن أراد الايمان بك وصدًا عن سبيل الله .

وقصارى ذلك : أنه نهي نبيه ﷺ أن يضيق صدره مما يلقي من أذى المشركين على تبليغهم . وحى الله وتنزيله ، كما قال : ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به ﴾^(١) ، وقال : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كتز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾^(٢) .

فإن الله كافيك أذاهم ، وناصرك عليهم ، ومؤيدك ومظهرك عليهم ، فمهما حاولوا إيصال الأذى بك فإن الله يبعده عنك ويحبط ما صنعوا وهم لا يشعرون .

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ : أى أن الله مع الذين اتقوا محارمه خوفاً من عقابه ، والذين يحسنون رعاية فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به ، وفي ترك ما نهاهم عنه .

ونحو الآية قوله لموسى وهارون : ﴿ لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾^(٣) .

وقول النبي ﷺ للصدىق وهما في الغار فيما حكى الله عنه ﴿ لا تخزن إن الله معنا ﴾^(٤) .

وقصارى ذلك : أن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه ، وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم ، فلم يحزنوا لفوت مطلوب ، ولم يفرحوا لنيل محبوب ، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائضه ، وأوامر حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكاله ، وقد فسر النبي ﷺ الأحسان فقال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(٥) .

(١) الآية ٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٢ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٥) أخرجه البخارى في تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفي الايمان : ٣٧ . وأخرجه مسلم في الايمان : ٥٧ . وابوداود في السنة : ١٦ . والترمذى في الايمان : ٤ . وابن ماجه في المقدمة : ٩ . والامام أحمد في ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، وفي ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفي ٤ : ١٢٩ ،